الباب الأول

سيرة «البشرى»

الفصل الأول

١ — بيت «البشرى»

ولد «عبد العزيز البشرى» فى حى البغالة بمصر عام ١٨٨٦ ونشأ فى بيت عريق عرف بالعلم والدين، وكان أبوه الشيخ سليم البشرى الذى ولى مشيخة الأزهر مرتين فى حياته. الأولى من عام ١٣١٧ هـ إلى ذى الحجة عام ١٣٢٠ هـ، وقد خلف فى المشيخة الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى المتوفى عام ١٣١٧ هـ، بعد شهر واحد من توليه هذا المنصب، أما المرة الثانية فقد كانت عام ١٣٢٧ هـ بعد استقالة الشيخ حسونة بن عبد الله النواوى، وقد ظل فى المشيخة حتى توفى يوم الجمعة ظهراً من ٤ ذى الحجة عام ١٣٣٥ وأتى بعده الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى الوراقى.

وقد كانت مشيخة الأزهر، ولا تزال حتى اليوم، أعظم مقام دينى إسلامى فى الجمهورية المصرية وينعت من يسند إليه هذا المنصب

بشيخ الإسلام ، وقد بلغ من احترام ملوك مصر وأمرائها لمشيخة الأزهر أن كان عباس الأول يحضر دروس الشيخ البيجورى فى الأزهر فلا يقوم له ، بل يحضر له كرسى من جريد يجلس عليه خارج الدرس . وبلغ سمو مقام هذا المنصب أن كان شيخ الإسلام عضواً فى مجلس البلاط الملكى ، وعضواً فى المجلس العالى للأوقاف ورئيساً للمجلس الأعلى للأزهر ، ومديراً لإدارة أوقاف الأزهر ، ورئيساً لقسم الوعظ والإرشاد ، ورئيساً لمجلس إدارة مدرسة القضاء الشرعى ، إلى غير ذلك من الوظائف الكبرى (١).

ولم يكن هنـــالك موظف فى مصر اختصته بلاده برواتب ومخصصات تضارع مقام شيخ الأزهر ومخصصاته .

وهكذا كان الشيخ سليم البشرى شيخاً عظيماً للاسلام له تلك المكانة السامية الرفيعة ، وهو ينتمى إلى أسرة متوسطة الحـال فى بلدة « بشر » بمركز شبراخيت بمديرية البحيرة ، ولد عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) ولما بلغ السابعة من عمره توفى والده ، فتولى أمره عمه حتى بلغ التاسعة . وكان قد أتم تعلم القرآن حفظاً وتجويداً فقدم مصر ونزل على خاله من شيوخ ضريح السيدة زينب رضى الله عنها ، ولبث عامين يتخرج فيهما على يديه وعلى سواه فى مبادىء العلوم وروايات القرآن ، ثم انتظم فى سلك الأزهر الشريف يرتشف من منهله العذب الزلال ، واتصل بكبار الأئمة الأعلام ، وطلب الفقه على مذهب إمام

(١) مجلة الزهراء ، مجلد ٢ ص ٤٨٥ عام ١٣٤٤ هـ .

دار الهجرة مالك بن أنس الذى يأخذ بمذهبه عامة أهل البحيرة وظل تسع سنوات طالباً للعلم على كبار العلماء ، كالشيخ الاسماعيلى والشيخ الخنافى والشيخ عليش والشيخ الباجورى وأمثالهم .

ومما يؤثر عن الشيخ سليم البشرى أن الشيخ الخنانى أستاذه كان يقرأ فى الجامع الأزهر كتاباً من أمهات الكتب فلما بلغ متوسط الكتاب اعتراه فالج أعاقه عن المضى فى إلقاء الدرس وألزمه الفراش وظل الطلبة فى انتظاره مدة طويلة فأرسل الشيخ الخنانى من جمع له الطلبة وجاء الأزهر محمولا ثم قال لطلبته : « إنى ذاهب وليس فى فضلة لتدريس العلم ، وإنى مستخلف عليكم لإتمام درسى أجدر الناس به . . . » وأمسك بيد الشيخ سليم البشرى .

ولبث الشيخ البشرى يدرس العلوم والدين وكان فى الحديث وعلوم السنة نابغة دهره ، وفريد عصره ، حتى لقد حاكى فيها السلف الصالح من رواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما بدت مشكلة ، ولا ظهرت معضلة ، ولا نزلت حادثة تتعلق بالعلم والدين إلا لجأوا إليه ، فكان حلالا للمعضلات . وفى ذلك أعظم الأمثلة والأدلة على واسع علمه ومبلغ تبحره وثاقب فكره ومضاء رأيه ودقة نظره ، ومرض الشيخ سليم بعد ذلك .

ولما أبل الشيخ سليم البشرى من مرضه عين شيخاً لمسجد السيدة زينب ولبث يقرأ « كتب البلاغة » وكان يحضر عليه أئمة العلماء

أمثال الشيخ البحيرى والشيخ عرفة البيانى والشيخ البسيونى والشيخ سالم البولاقى .

وصدر الأمر العالى بعد ذلك بتعيينه شيخاً ونقيباً للسادة المالكية ، وعضواً فى مجلس إدارة الأزهر . فشيخاً للجامع الأزهر ، ثم استقال ، ثم أعيد مرة ثانية . وشرح (نهج البردة) فى كتاب سماه (وضح النهج) .

وقد تمت فى عهد الشيخ سليم البشرى إصلاحات كثيرة لا حاجة بنا إلى إيرادها وتعدادها ، أهمها تحسين رواتب العلماء وتنظيم التدريس وإنشاء عدة معاهد للتربية الدينية فى أنحاء القطر المصرى ، وإنشاء مدرسة للقضاء الشرعى ، وتأليف هيئة كبار العلماء ومجلس الأزهر الأعلى ، ونال حظوة لدى السلطان حسين كامل فأنعم عليه بالنيشان المجيدى الأول ، وبالوشاح الأكبر من وسام النيل .

وقد فاضت روحه إلى بارئها فى يوم الجمعة الموافق ٤ ذى الحجة عام ١٣٣٥هـ ، فرثته الصحف بفيض من كلماتها ، وضمخت قبره بعبراتها ، ومما نشر فى هذا الصدد مقال فى جريدة اللطائف المصورة ، وهى إحدى الصحف المرموقة فى هذه الفترة جاء فيه : (١)

« . . . أيدرى المسلمون بمن أصيبوا وقد واروا سليما فى التراب .. هوى طود من أطواد العلم ، وانهار ركن من الدين ، فبكت

---

(١) اللطائف المصورة العدد ١٣٨ أول أكتوبر ١٩١٧ .

الفضيلة ربها، والتقى من كان به متصفاً، ونعني به نقيب العلماء وكبيرهم، ورأس رجال الدين صاحب الفضيلة الكاملة ... والسيرة الطاهرة الشريفة الإمام المغفور له الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر الشريف ورئيس المجلس الأعلى .

انتقل إلى جنة الخلد يوم الجمعة الماضى بعد الظهر، ولم يكن قبل وفاته بيوم واحد يشكو مرضاً ولكل أجل كتاب . فقضى مناهزاً التسعين ، وكان يدير أكبر معهد علمى دينى فى الشرق ، بل فى العالم أجمع ، لا تفتر له همة .. ولا ينثنى له عزم .. ففى الكهولة شاب ، وفى الشيخوخة شاب ، بما أودع الله فى صدره من غيرة دينية .. وحمية لم يطفىء نارها إلا الأجل المحتوم .. »

ولم يمت الشيخ سليم إلا بعد أن رأى ابنه فى طور الشباب . . وشاهده زوجاً وأباً ، وكان يلقى على ابنه «عبد العزيز» دروساً فى الدين والفضيلة، ويرشده إلى موارد العلم والأدب ، ويبث فى نفسه الرغبة فى الاستفادة والتثقف . ويروى «عبد العزيز البشرى» أنه احتسب ولداً له كان وحيداً، فجن جنونه، وفعل به الأسى الأفاعيل، وقد انتهى إلى أبيه رحمة الله عليه بعض ما يصنع أو بعض ما يصنع به الوجد والأسى فاستدعاه وقال له : بلغنى أن الجزع قد بلغ منك إلى أنك تفعل كيت وكيت . أفلا آثرت الاحتمال وتحملت بالصبر على هذا كما احتملت أنا وكما صبرت ؟ فسكت عبد العزيز لأنه لم يصب قولا يقوله فأقبل عليه وأخذ يديه كلتيهما فى يديه وقال : اسمع ياولدى !

إذا كنت قد حزنت لموت فلان مرة فلقد حزنت لموته مرتين ! فرفع عبد العزيز وجهه إليه وقال له فى شيء من الدعة والرفق يخالطهما كثير من الدهش : وكيف هذا ؟ فقال فى لوعة شعر بها يعانى أباه فى مجاهدتها : لأنه إذا كان ابنك مرة فإنه ابنى مرتين ! ورأى الدمع يترقرق فى عينيه ولكنه لا يأذن له فى أن يتجاوز المحجرين ! وسرى هذا الكلام عن عبد العزيز كثيراً إذ علم أنه فى هذه المصيبة صاحب أضعف السهمين . . ! ! . . (١)

وهكذا كان الشيخ سليم البشرى فيلسوفاً فى رده على حزن ابنه أو تلك كانت حاله دائما. فلا عجب أن يرث عنه تلك النظرة العميقة إلى الأمور ومقابلة الشدائد والملمات بسخريته المعروفة ، وتهكمه اللاذع ، ونكتته الساخرة .

٢ — أدوار حياته

دخل عبد العزيز « البشرى » الكتاب وهو فى سن الصبا ، وتعلم القراءة والكتابة على نحو ما كان يفعل لداته فى ذلك الحين ، ومكث فيه فترة طويلة حفظ فيها القرآن الكريم ، ثم انتقل منه إلى مدرسة ابتدائية ، ولكن أباه أبى إلا أن يدخل الأزهر ، وأن يدرس علوم الدين ، وكان يومئذ شيخ الإسلام لأول مرة ، وكان الأزهر كما نعلم مقصد طلاب العلم من شتى الأقطار والأمصار وهو أقدم الجامعات

(١) المختار ، الجزء الاول ص ١٦٣ .

الإسلامية وإن كان بعض الباحثين الغربيين ينكرون فضله ويقدمون عليه غيره من المدارس الإسلامية والجامعات التي أنشئت في طول البلاد وعرضها ومن هؤلاء بعض المستشرقين (١).

والواقع أن الأزهر كان مقصد أكثر طلاب العلم في هذه الفترة، وكان جامعة العالم الإسلامي بأسره، يؤمه طلاب العلم من أواسط أفريقيا إلى الروسيا، ومن أقاصي الهند إلى مراكش.

فليس عجيباً إذن أن يتعلق الشيخ سليم البشري بالأزهر، وأن يحث ابنه على طلب العلم فيه. وبينما كان في الأزهر تعلق عبد العزيز بالأدب وأحبه ثم تخرج عام ١٩١١ فعين سكرتيراً بوزارة الأوقاف حيث ظل بها ابتداء من ١٦ يناير عام ١٩١١ إلى ٢٣ سبتمبر ١٩١٢، ثم عينه المرحوم أحمد حشمت باشا محرراً فنياً بوزارة المعارف، وفي هذا الوقت ندبه سكرتيراً عاماً للجنة الاصطلاحات العربية، وكان من أعضاء هذه اللجنة إسماعيل باشا حسنين ومستر روب وحفني بك ناصف وأحمد زكي باشا (٢).

وقد تقرر تعيين الشيخ «عبد العزيز البشري» الموظف بديوان عموم الأوقاف محرراً عربياً بنظارة المعارف العمومية حيث خلت بها هذه الوظيفة من الدرجة التي مربوطها من ١٢ جنيهاً إلى ١٦ جنيهاً بانتقال من كان يشغلها إلى النظارة الحقانية وهو الشيخ مصطفى

---

(١) الأزهر لعبد الحميد يونس ص ٢١١.

(٢) مقال للأستاذ طاهر الطناحي ص ٢٢٣ الهلال ١٩٤٣.

لطفي المنفلوطي، وبما أن من تسند إليه هذه الوظيفة يجب أن يكون من الكتاب المجيدين الذين لهم دراية تامة بفن الإنشاء والتحرير وآداب اللغة العربية، ولا يوجد بين حملة الشهادات الدراسية من اجتمعت فيه هذه الصفات، ويمكن الاستغناء عن الانتفاع به في وظائف التعليم، ولما كان الشيخ البشري الموظف بديوان عموم الأوقاف ممن توفرت فيه هذه الصفات، فقد رأت النظارة انتخابه لوظيفة المحرر المذكورة براتب قدره ١٢ جنيهاً شهرياً في اللائحة المقررة وهو غير حاصل على شهادات دراسية، ولكنه حائز لشهادة العالمية من الدرجة الثانية، ويعتبر في وظيفته الحالية بالأوقاف بصفة دائمة براتب شهري قدره ١٠ جنيهات من أول فبراير عام ١٩١٠ ويتناول علاوة على ذلك قدرها ثلاثة جنيهات شهرياً من الأزهر نظير التدريس فيه، وكشف عليه طبياً بالقومسيون الطبي بالصحة في ٦ يوليو ١٩١٢ وتقرر أن عمره ٣٦ عاماً ولائق للخدمة.

ولما تحول حشمت باشا إلى الأوقاف كره «البشري» البقاء في وزارة المعارف ورضي التحويل إلى القضاء الشرعي، فعين قاضياً بالمحاكم الشرعية حتى ١٩٢٢ وكان مقره محكمة الزقازيق الشرعية. ويظهر أن البشري لم يكن مرتاح النفس راضي الضمير من هذا العمل فأكثر الشكوى وسجل هذه الشكوى في كتاباته، ويروى البشري أنه تلقى ذات يوم كتابا من (الرياسة) بندبه إلى المحكمة الكلية لتكملة (الهيئة) لجلسة امتحان المأذونين وفي اليوم (الموعود)

مضى «البشرى» كارهاً ورأى ألا يضيع الوقت سدى فأنشأ وهو فى الطريق يضع الأسئلة التى تطلبها لائحة المأذونين، سواء فى الفقه الحنفى أو فى الأحكام النظامية .. للزواج والطلاق، أو فى الحساب أو الاملاء .. أو الخط ..

وسوى كل سؤال على صورة حادثة مما يعرض للمؤذنين فى مهنتهم كلما دعوا إلى زواج أو طلاق(١) .

وبلغ «البشرى» المحكمة فإذا حجرتها الكبرى تموج بحضرات المتقدمين للإمتحان وقد كبوا على الأرض كباً، ويعنى الأرض نفسها لأنها متجردة ليس عليها بساط ولا حصير، وهم بين متربع وبين غير متربع، وبين معتمد على كعبيه، وقد تعلق سائره، وبين جالس على إحدى ركبتيه، وفى يمين كل منهم قلم، وفى يساره كاغد، وبين يديه دواة من فخار. وفى صدر الحجرة دكة انحط عليها صاحبا الفضيلة النائب والقاضى، والجميع جاثمون فى انتظاره، فاتخذ له بين الشيخين مجلساً وأدنى إليهما، فتجمعت رؤوسهم هم الثلاثة وقال لهما هامسا: لقد هيأت أسئلة الإمتحان فإذا راقت لكما ألقيتها على المشايخ وبذلك يتهيأ لى أن أعود إلى محكمتى فى الحال ففيها عمل كثير يحتاج إلى طول علاج.

وأظهر «البشرى» النائب والقاضى على الأسئلة التى وضعها ولكنهما

---

(١) المختار للبشرى، ص ٢٤٧ الجزء الثانى.

لم يقابلاها إلا بالرد والتسفيه وهبّا فى نفس واحد : لا . . . لا . . . وهتف النائب عن يمينه (نحن لا نوافق) فرجع القاضى عن شماله (أبدا ... أبدا) فاشتد حنق «البشرى» وطلب لائحة امتحان المأذونية فلما جاء بها الحاجب وتلا ما معناه أن يؤدى طالب المأذونية امتحاناً فى أحكام الزواج والطلاق وما يتعلق بهما شرعا ونظاما وفى الاملاء والحساب والخط .

ثم أقبل القاضى على «البشرى» وقال .. (لا .. لا .. ما نقدرش نخرج من اللائحة . . .) أرح نفسك فقد وضعنا أسئلة تنطبق على أحكام اللائحة تمام الانطباق فقلت .. هاتها .. فتلا على ما يأتى :

السؤال الأول : ما هو الفقه على مذهب أبى حنيفة ؟

السؤال الثانى : ما هى الأحكام النظامية للزواج والطلاق ؟

السؤال الثالث : ما هو الحساب ؟

السؤال الرابع : ما هو الإملاء ؟

السؤال الخامس : ما هو الخط (١) ؟

وهنا لم تعد جدران صدر «البشرى» تقوى على حقن الغيظ ، فانفجر انفجاراً وصاح فيهما : ما الخط ؟ أجيبا أنتما على السؤال . فأجابا فى نفس واحد (لا تخرج على اللائحة) فقال لهما (وإنه لأول مرة . . . يفشى سر المداولة) إنى غير موافق .. فصاحا : ولكن الأمر تم

---

(١) المختار للبشرى ص ٢٤٨ الجزء الثانى .

بالأغلبية فقلت لها : إذن فامضغا هذه الأغلبية . . وتركهما ونهض من فوره يشكوهما إلى وزير الحقانية عبد الخالق ثروت باشا الذى ضحك رحمه الله حتى انكشف ناجذه ولم يصارحه برأى ولكنه اطمأن إلى أنه لم يمسه بسوء من أثر فعلته .

تلك هى قصة حياة «البشرى» فى المحاكم كما روى صوراً منها فى كتابه (المختار) وإنها لقصة مريرة تسجل الفرق بين عقليتين ، عقلية رجعية قديمة ، وعقلية تقدمية حديثة . عقلية تتمسك بنصوص اللوائح الحرفية دون تفكير ولا تقدير ، وعقلية تحسن تفسير اللوائح وتحسن النظر إلى الأمر فى حكمة واستيعاب ، غير أن عبد العزيز ضاق بهذه الحياة ، فنقل مفتشاً بالمجالس الحسبية ، وبعد قليل ندبه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين ليكون سكرتيراً للجنة وضع الدستور مع بعض رجال القانون .

وفى أواخر هذه السنة عين مفتشاً بوزارة الحقانية عام ١٩٢٣ ولم يلبث فى هذه الوظيفة شهوراً حتى تغيرت الحالة السياسية وتألفت وزارة نسيم باشا الأولى ، ولم يمض عليها ساعات حتى صدر أمر (١) وزير الحقانية بندبه إلى حضور عامل بمجلس حسبى أسيوط فبقى هناك حتى استقالت الوزارة وعاد قاضياً بالمحاكم الشرعية . ولما تولى على ماهر وزارة المعارف لأول مرة عهد إليه وإلى الأستاذ أحمد أمين

---

(١) مجلة الهلال ١٩٤٣ ص ٢٢٣ .

عميد كلية الحقوق وقتذاك وضع كتاب فى التربيـــة الوطنية للمدارس الإبتدائية ، ثم نقل إلى وزارة المعارف عضواً بالمكتب الفنى ، ولما تولى على الشمسى باشا الوزارة ألغى هذا المكتب واتخذه سكرتيراً برلمانياً له .

وبقى «عبد العزيز البشرى» فى هـــذا المنصب حتى عين وكيلا لادارة المطبوعات ، وظل فى هذا المنصب إلى أن أحيل إلى المعاش فى ٣٠ / ٤ / ١٩٣٠ قبل بلوغه سن التقاعد .

وقد أبلغ «عبد العزيز البشرى» فى ٣١ مايو ١٩٣٠ من وزارة الداخليـة أنه صدر قرارها فى ٢٦ مايو ١٩٣٠ بإحالته إلى المعاش لالغاء وظيفة وكيل ادارة المطبوعات (١).

وقد استقبلت الصحف المصرية والأجنبية تعيين الشيخ البشرى وكيلا للمطبوعات استقبالا حسناً وداعبته بعض الصحف مداعبات لطيفة حيث نشرت (روزاليوسف) صورة للشيخ البشرى وقـــد اجتمع ببعض مندوبى الصحف والوكالات الاخبارية الأجنبية وأخذ يقول لهم (حضرات الخواجات ... بسم الله الرحمن الرحيم ...) .

وكتبت جريدة الظـــاهر معلقة على منصب وكيل إدارة المطبوعات فقالت (٢) :

---

(١) ملف الخدمة بوزارة المالية ٤٥٣/٣/٢٨

(٢) مجلة الظاهر فى ٢٦ يونيو ١٩٢٩ .

«ولقد آن لولاة الأمر أن ينظروا إلى إدارة المطبوعات نظرة تجديد وإصلاح كما نظروا الى غيرها من المسائل التى تستحق العناية والتقدير . والحق أن إدارة المطبوعات تتصل بعمل هائل ضخم هو الطيمنة على ما يكتب ويمثل ويسمع ويلحن وبطائفة حساسة هى طائفة الصحفيين ، فهى إذن إدارة لعمل كبير منتج إذا صلحت صلح بصلاحها شىء كثير من الأدب والأخلاق .

وكانت باكورة هذا الاصلاح الجديد أن عين أديبنا الرائق المصفى الأستاذ الجليل عبد العزيز البشرى وكيلا لهذه الادارة ، وهو ما هو فى عالم البيان والأدب . فكيف إذن يكون رئيسنا الأكبر . ومن هو الذى سيكون زعيما لهذه الإدارة العلمية بعد أن صارت وكالتها إلى الأديب البشرى . لا شك أن الوزارة ستخرج للناس بأديب يشار اليه بالبنان ، لا نقول إنه زعيم للبشر فى الأدب ، فليس لأستاذنا فى الأدب من زعيم ، ولكن بحكم الدرجات المالية سيكون زعيما إدارياً رسمياً فحسب ، وبعـــد ذلك نرجو للسيد البشرى كل نجاح وسداد » .

وقد كتبت مجلة الظاهر هذا المقال لأن «البشرى» عين فى إدارة المطبوعات بعد الدكتور فريد رفاعى فى منصب وكيل وظل منصب المدير شاغراً .

وكتبت الظاهر مقالا رائعاً آخر عن الشيخ عبد العزيز البشرى جاء فيه (١) :

---

(١) مجلة الظاهر فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٩

« . . . . ولعمرك إذا كان الوالد مهبط الوقار والتقوى ، ومرفع الشرف والكرامة ؛ وينبوع العلم الديني العذب كأحد أئمته الأربعة الأولين بلا ريب . . وهكذا كان الشيخ الوالد فما هو ظنك بعد بما يعقب ذلك الإمام من أبناء ؟ ! .

كان من أبنائه أديبنا الرائق المصفى الأستاذ عبد العزيز البشري الذي وضعه الرأي الموفق في موضعه من الأدب ، فصارت اليه إدارة المطبوعات في دائرة رئاستها الثانية ، ولا ننسى أن الأستاذ بارز أبداً مهما أخجله تواضعه ، ومهما أوحى اليه تهذيبه بالنفور من الإعلان عن فضله وأدبه .

فسواء عليه وعلينا إن كان العنوان الرسمي له رئيساً أو وكيلا إنه « البشري » الأديب والعلم المرفوع في كل عمل يليه .

جلس البشري في إدارة المطبوعات وصار إليه الكثير من أمورها فلتضحك الصحافة ضحكة الأمل المرجى ، فهذا القلم الذي يقطر أدباً نديا قد صار منها في صميم الأمر وجوهره .. وأضحى لها معيناً على بلائها ونصيراً (١) .

هكذا استقبلت الصحف تعيين الشيخ البشري بإدارة المطبوعات ، ورحبت بذلك الأديب الذي عرفه الأدب الناضج ، فكان من أعلامه الخافقة ، وهذا القاضي الذي اصطفاه القضاء العادل فكان ركناً من أركانه التي شيد عليها صرح العدالة ودولة القضاء الحديث . وذلك

---

(١) مجلة الظاهر ١٣ نوفمبر ١٩٣٩ .

الأديب والقاضي هو الذي وقعت عليه خيرة ولاة الأمور ليلي أمر السيطرة على المطبوعات والحركة الفكرية ، لا بالمنع ولا بالمنح ، ولا بالتعطيل ولا بالإلغاء بالطرق الأولية بعد أن كفل الدستور حرية الصحافة في حـــدود القانون ، وكانت سيطرة البشري على المطبوعات السيطرة الادارية الأدبية والارشادية التي تمد يديها ترحيباً بالصالح مما تنتج الأفكار والقرائح ، وتنفي مالا يتفق مع الأخلاق ، ولامع الآداب العامة مما يسهل على الأنفس الضعيفة سبيل الفساد . . .

وكانت الصحف في تلك الفترة تشكو مر الشكوى من إدارة المطبوعات والإجراءات السقيمة التي تفرضها فرضاً على الصحف منذ إنشائها فالتمست من الشيخ البشري أن يسهل هذه الإجراءات ويأخذ بناصر الصحافة ولا يكبت حريتها أو يعطل صدورها دون سبب معقول

وقد لخصت جريدة البلاغ في ٢٥ فبراير ١٩٣٠ شكوى الصحف في هذه الملاحظات (١) :

١ — كانت هذه الادارة لا شخصية لها بين الادارات الكثيرة في وزارة الداخلية ، ولا نعرف أحداً في محرريها السابقين كان له رأي قاطع في أخص أمور إدارته وعمله .

٢ — إنها تدور على دولاب بال لم يلحقه التهذيب أسوة بجميع فروع الأدوات في جميع الدواوين والمصالح فالعمل فيها آلي محض .

(١) جريدة البلاغ ٢٥/٢/١٩٣٠ .

٣ ـ كانت الأغراض فيها آخذة مأخذها إلى أبعد مدى ، فالذى يحل لزيد لا يحل لعمرو ، والذى يحرم على هذا لا يحرم على ذاك ، وهكذا كانت تأخذ كل طلوع شيء اتجاها جديدا فى الكثير من أعمالها .

٤ ـ يشاع أن كثيراً من المصالح الحكومية أصبح لا يثق كثيراً بإفادات المطبوعات لأنها فى الغالب تخرج من القلم الكتابى لهذه الإدارة مملوءة غرضاً ومخصومة لبعض الصحفيين ، ثم توقع من الرؤساء كما هى العادة المتبعة ، فتولد عدم الثقة .

٥ ـ أصبح كثير من الصحفيين لا يثق بإدارة المطبوعات ولهذا يرسلون الخمس نسخ من جرائدهم التى حتمها القانون عليهم بطريق (البريد) المسوكر ويحفظون إيصالاتها . . (ليوم معلوم) مع أنها معفاة من الرسم إطلاقا . .

هذه هى شكوى بعض الصحف من إدارة المطبوعات فى شهر فبراير عام ١٩٣٠ ، وتلك كانت شكوى يرجع تاريخها إلى عهد إنشاء الإدارة فلم يستطع الشيخ البشرى فى الفترة التى ولى فيها شئونها أن يصلح أمورها على وجه السرعة فظل فيها حتى شهر أبريل من السنة نفسها ثم أحيل إلى المعاش لإلغاء منصب الوكيل على نحو ما جاء فى ملف الشيخ البشرى نفسه (١) .

أعيد « الشيخ عبد العزيز البشرى » بعد ذلك إلى المعارف .

---

(١) ملف الخدمة فى المالية ٧٨/٣/٤٥٣ .

ولما أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية عاد مراقباً عاما إلى أن توفى إلى رحمة الله .

فى مايو عام ١٩٣٥ وافقت وزارة المالية على تعيين فضيلته فى وظيفة مراقب إدارى مساعد لمجمع فؤاد الأول للغة العربية بعقد لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخ إقامتـــه بالعمل ومنحه مكافأة قدرها ٣٠ جنيها علاوة على المعاش وقدره ٢٨ جنيها و ٨٠ مليما .

وكان عقد خدمته إبتداء من ٢٤ مايو عام ١٩٣٥ إلى ٢٢ مايو عام ١٩٣٨ . كما كان المراقب العام للمجمع وقت تعيينه الأستاذ محمد أحمد جاد المولى (بك) ووزير المعارف أحمد نجيب الهلالى (باشا) وجاء فى قرار تعيينه ما يلى :

قرار وزارى رقم ٤١٨٥ الصادر فى ٢٣ مايو ١٩٣٥ : يعين الشيخ عبدالعزيز البشرى مراقباً إدارياً مساعداً لمجمع اللغة العربية الملكى من تاريخ هذا القرار (١) .

وزير المعارف

أحمد نجيب الهلالى

١٩٣٥/٥/٢٣

وكان زملاء البشرى فى الدرجة الرابعة فى المجمع سيد ابراهيم أفندى وحصل على شهادة من تركيا وإنجلترا ومحمد حسنين عبد الرازق

---

(١) ملف الخدمة فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

وحصل على أجازة دار العلوم وأسعد عبد الملك افندى وكان حاصلا على الثانوية وشهادة كفاءة التعليم وشهادة من فرنسا . أما الشيخ البشرى فقد كان حاصلا على شهادة العالمية من الأزهر .

وكان الشيخ عبد العزيز موضع عطف من رؤسائه لأدبه وعلمه وعذوبة طباعه ورقة أخلاقه فتقرر تعيينه مراقباً عاماً للمجمع بقرار وزارى رقم ٤٥٦٣ صادر بتاريخ ٥ نوفمبر عام ١٩٣٦ وكان وزير المعارف فى ذلك الوقت على زكى العرابى باشا .

وقد أرسل وكيل وزارة المعارف فى مارس عام ١٩٣٨ وكان (محمد العشماوى باشا) خطاباً سرياً إلى رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية جاء فيه (١) :

« أتشرف بإبلاغ معاليكم أن عقد استخدام حضرة الشيخ عبد العزيز البشرى المراقب الادارى للمجمع ينتهى فى ٢٢ مايو ١٩٣٨ المرجو التفضل بموافاة الوزارة برأى معاليكم فى تجديد عقد حضرته أو عدم تجديده وأسباب ذلك بالتفصيل . وفى حالة الرغبة فى تجديد التعاقد نرجو بيان المدة التى ترونها . . . »

وقد رد رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية على خطاب وكيل المعارف بالرغبة الأكيدة فى تجديد عقد الشيخ البشرى وتجديده من ٢٣ مايو عام ١٩٣٨ إلى ٢٢ مايو ١٩٤١

---

(١) ملف الخدمة فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

وفى أبريل عام ١٩٣٩ أرسل محمد توفيق رفعت باشا رئيس المجمع خطاباً إلى وزير المعارف العمومية يلتمس فيه ترقية الشيخ البشرى إلى الدرجة الثالثة ، ويعد هذا الخطاب من أقيم الوثائق التى يحتفظ بها مجمع فؤاد الأول للغة العربية عن منزلة الشيخ البشرى ومكانته الأدبية وهذا هو نص الخطاب (١) :

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية

متابعة لحديثى الشفوى إلى معاليكم فى شأن درجة المراقب الادارى للمجمع أتشرف بأن أعزز طلبى بأن درجة المراقب الادارى كانت الثالثة الممتازة فضلا عن وظيفة مساعده له فى الدرجة الرابعة وذلك حين كانت أعمال المجمع يسيرة وعدد موظفيه قليلا والآن وقد اتسعت أعمال المجمع وعظمت مكانته وكثر موظفوه والعـــاملون فيه أصبحت الدرجة الرابعة لا تكافىء بأى حال من الأحوال منصب المراقب العام له ، ولا أظن أن مثل هذا له نظير فى أى مصلحة من مصالح الحكومة . هذا من جهة المنصب . أما من جهة شاغله الأستاذ عبد العزيز البشرى فهو رجل لا شك فى كفايته الواسعة التى كانت ومازالت واضحة فى جميع المناصب الفنية التى تقلب فيها فى مختلف المصالح إلى الآن فوق ماله من ماض طويل فى خدمة العلم والأدب والمساهمة فى كثير من مشروعات التعليم ووضع كتب للتربية والآداب لمعاهد التعليم . وفوق هذا كله

---

(١) ملف الخدمة بمجمع فؤاد الأول للغة العربية .

أعطى الدرجة الرابعة الكاملة منذ أكثر من عشر سنوات مضت وقد سبق أن طلبت ترقية وظيفته مرات الى الدرجة الثالثة بمناسبة وضع مشروعات الميزانية فلم يجب هذا الطلب مع الأسف العظيم وإنى أكرر رجائى الى معاليكم أن تتفضلوا بمنحه الدرجة الثالثة اعتباراً من أول العام المالى الجديد فاذا لم تكن هذه الدرجة موجودة الآن فى الوزارة فأرجو التفضل بمراجعة وزارة المالية فى الأمر والتوكيد عليها فيه فان إهمال المراقب الحالى مع كل هذه الاعتبارات أمر أيسر ما يقال فيه إنه ليس من الحق ولا من العدل فى شىء، وليس من شك فى أن قيام معاليكم على شأن وزارة المعارف هو أسعد الفرص لانصاف العاملين على إعزاز الثقافة ونشر الأدب .

وتفضلوا بقبول أجل الاحترام ؟

رئيس المجمع

١٢ / ٤ / ١٩٣٩

محمد توفيق رفعت

بهذه الروح القوية الطيبة كان توفيق رفعت (باشا) يدافع عن الشيخ البشرى ويرى أنه ليس من الحق ولا من العدل فى شىء ألا يرقى إلى الدرجة الثالثة التى جاءت اليه فى أوج مجده الأدبى ونشاطه الفكرى واستكمال فكرة الناس عن أدبه .

وقد أرسل وزير المعارف (محمد حسين هيكل باشا) (١) فى ٢٤

(١) ملف الخدمة فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

أبريل عام ١٩٣٩ خطاباً إلى وزير المالية مضمناً إياه هذا المعنى وألحقته توفيق رفعت باشا بخطاب آخر الى وزير المعارف فى ١٩٣٩/٤/٢٦ جاء فيه أنه إذا لم يتيسر إجابة هذا الطلب فى الوقت الحاضر أن تتفضلوا باصدار الأمر بزيادة راتب المراقب الحالى من فاضل درجته الحالية (الرابعة) بما يوازى علاوتين من علاواتها ترفيها من حاله وتعويضا فى قضائه هذا الزمن الطويل فى درجته .

وفى عام ١٩٤٠ أصدر محمود فهمى النقراشى باشا وزير المعارف القرار التالى (١) . برفع مكافأته بعد خروجه من سلم الدرجات :

بناء على قرار مجلس الوزراء الصادر فى ١٣ فبراير ١٩٤٠ يعتمد رفع المكافأة التى يتقاضاها الشيخ البشرى المراقب الادارى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية من ٣٠ جنيه الى ٣٥ جنيه أى مايعادل أول مربوط الدرجة الرابعة وذلك ابتداء من أول يناير عام ١٩٤٠ .

وزير المعارف

محمود فهمى النقراشى

وهكذا لم يرق البشرى الى الدرجة الثالثة وإن زيدت مكافأته وعلا قدره وشاع صيته حتى أن وزير الشئون الاجتماعية طلب فى مارس عام ١٩٤١ من رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية انتداب الشيخ البشرى حيث أن الوزارة ترغب فى النهوض بمجلة الشئون

(١) ملف الخدمة بمجمع فؤاد الأول للغة العربية .

الاجتماعية وفى جعلها تؤدى رسالتها على أكمل وجه وقد رأت تشكيل لجنة للعناية بشئونها يكون من بين أعضائها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز البشرى .

وانتهى عقد الشيخ البشرى فى ٢٣ مايو عام ١٩٤١ فجدد الى ٢٢ مايو عام ١٩٤٤ إلا أن الموت لم يمهله حتى نهاية هـــذه الفترة فمات خـــلالها . . . . .

فى مساء الأربعاء الموافق ٢٤ مارس ١٩٤٣ قبض الله إلى رحمته حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز البشرى المراقب الإدارى بالمجمع وشيعت الجنازة من محطة باب اللوق فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الخميس ٢٥ مارس ١٩٤٣ .

وفى نعى المجلس فى الجلســـة المتممة للعشرين قال رئيس المجمع (١) :

«ودّعنا يوم الخميس الماضى فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى مراقب المجمع الإدارى بعد أن ظل قائماً بعمله إلى اليوم الذى وافاه فيه الأجل المحتوم ، فكانت فجيعتنا فيه بالغة الأثر ، ولقد كان لا يفتأ يوالى عمله بما آتاه الله من كفاية ومقدرة وبما كسب من خبرة وتجربة يبعثه على ذلك إيمان وثيق بالأغراض التى أنشىء من أجلها المجمع ، ورغبة مشبوبة فى تيسير وسائله ، بل لقد

---

(١) محضر جلسات المجمع ١٩٤٣/٣/٢٩ .

كانت عقيدته العربية الصريحة وغيرته على إنهاض الفصحى تحدوانه إلى أن يناضح عن المجمع بقلمه ولسانه كلما لاحت فرصة أو نجمت ناجمة .

ولا غرو فى أن يكون كذلك ، ففقيدنا الأستاذ البشرى قد عرفه العصر الحديث أديباً فى الذروة بين الأدباء البلغاء ، وكاتباً مشرق الديباجة ، رصين الأسلوب ، يعد حجة من حجج العربية على استطاعتها أن توالى الأديب المتمكن فى التعبير عن خوالج النفس وسوانح الفكر .

والحق أن المصاب فيه عظيم ، وأن خسارتنا فيه بما ترك من من ذخر أدبى مكتوب له البقاء ما بقيت ذخائر العربية فى عصورها المتطاولة . . . »

وأعلن معالى رئيس المجمع بعد سبع جلسات من هذه الجلسة قرار تعيين حضرة الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى رئيس التحرير والإدارة بالمجمع مراقباً إدارياً له فى المكان الشاغر بوفاة الشيخ البشرى (١) .

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف من ١٩٤٣/٤/٣ حضر نجلا الفقيد حسين عبد العزيز البشرى وعبد الحميد عبد العزيز البشرى لفتح حجرة مكتب والدهم ومحفظة أوراقه الخاصة وأخذا كل ما يخصه من الأوراق والكتب التى كانت تخص فضيلته واستلما نجفة كانت

---

(١) محضر جلسات المجمع جلسة ١٩٤٣/٥/٣١

ملكا له ومهما مستلزماتها ومقلمة من الرخام ومترا من الصلب وذلك بحضور محمد حامد إبراهيم افندى الموظف بالمجمع وحضرة الأستاذ إبراهيم خليل أفندى أمين المكتبة . وكان فى عهدة الفقيد عند وفاته (شنطة) جلد على شكل صندوق مقاس ٤٥ × ٣٥ وقد تسلم المجمع الحقيبة المذكورة ..

٣ — أخلاقه وحياته الخاصة

كان «البشرى» حسن العشرة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يحب الفكاهة ، وكان يمتاز بخفة الروح ، وعذوبة النفس . . والمداعبة ورواية النكتة ، وهى فى أصدق وضعها نوع من الأدب وفن من فنونه ، لأنها تحتاج إلى الذكاء اللماح ... والتصوير المبدع ... والبديهة الحاضرة ... والخيال السريع ... وسنتحدث فى فصل آخر عن فن النكتة عند « البشرى » . غير أنه كان عصبى المزاج يثور لأقل بادرة ، ويهدر الصداقة القديمة . . ومن أجل هذا المغمز كان كثير من أصدقائه .. يتقونه .. ويتحاشونه ويخافون سقطات لسانه .

وقد روى «البشرى» أن أحداً من الزعماء إذا عرف أن نوبته أقبلت فى مرآة السياسة الأسبوعية طوى الليل ساهراً لا يغمض له جفن حتى يطالع ما كتبه عنه « البشرى » (١) .

وقد نشأ البشرى فى بيت علم ونعمة ، فكان أبوه كما ذكرنا شيخاً

---

(١) منصور جاب الله مجلة الرسالة عدد ٦١٢ ص ٣١٥ مارس ١٩٤٥ .

للأزهر حقبة ليست قصيرة. فلم يمكن من الكتاب المحرومين الذين أثر الحرمان فى أدبهم ، على أنه كان مبسوط اليد فى كثير من الأحيان. يحاول دائما أن يرفه عن نفسه ويريح مزاجه بجلساته الخاصة مع أصحابه وخلانه مثل راغب عطية باك الوزير السابق الذى أهدى إليه كتاب المختار بقوله :

« أهدى عصارة ذهنى مدى الحياة إلى من أهدت مودته إلى أحلى ذكريات الحياة » وكذلك الجراح المشهور المرحوم على باشا ابراهيم وشاعر النيل حافظ باك ابراهيم والفنان صالح عبد الحى وغيرهم من رجال الفكر والفن والأدب ، وقد زار الأستاذ منصور جاب الله الشيخ البشرى فى منزله فى مطلع عام ١٩٣٤ وأشار إلى صور معلقة على الجدار فقال البشرى : « هؤلاء الثلاثة هم الذين أجلهم وأحترمهم من المصريين جميعاً » فتفرس الأستاذ منصور فى الصور فإذا هى صور الدكتور على ابراهيم وأحمد شوقى والدكتور عبد الحميد بدوى (١) .

وقد كان البشرى دائم التجول يحب الانتقال من مكان إلى مكان ، وفى هذا يقول الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه قطوف (٢).

« فطر على حب التنقل . على حب التنقل المادى والمعنوى جميعا

---

(١) منصور جاب الله مجلة الرسالة العدد ٦١٢ عام ١٩٤٥ .
(٢) قطوف للبشرى الجزء الأول ص ع من المقدمة .

فكنت تراه مصبحاً فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريباً منه ، فإذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملماً بدار الكتب أو قريباً منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فإذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية ، فإذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين . وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ ابراهيم رحمه الله » .

وقد ظل حب الانتقال يتمشى فى روح البشرى منذ عهد الحداثة إلى عهد الرجولة والشيخوخة ، فظل يتنقل أخيرا بين (بار اللواء) و (الكافيه ريش) و (قهوة جراسمو) و (ندوة الاهرام)[1] ويجتمع بأساطين السياسة والأدب ويقص عليهم نوادره ومداعباته ، ويسامرهم بأفاكيهه ونكاته ، حتى مضى محزوناً عليه . ويروى أصدقاء البشرى أنه كان لا يتحرج من شرب الخمر فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن يشربها إلا رغبة فى النسيان وطمعاً فى الخلاص من هموم الدنيا وأعباء الأحزان . . . وقد فجعه الدهر فى بعض أبنائه فطارت نفسه شعاعاً ، وأصيب قلبه بجرح لا يندمل ، ولذلك كان رثاؤه من

---

(١) قطوف ، الجزء الثانى المقدمة ، ص ع .

أصـــدق الرثاء ، وقديماً قيل إن العرب يجيدون الرثاء [1] لأنهم يقولونه وأنفسهم مفطورة من الحزن .

وكان البشرى يشكو قرحة فى معدته وروى لى الأستاذ شوقى أمين المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية أنه قال له : « إنه يسير وحتفه بين جنبه وقد لف على جميع الأدوية شرقا وغربا حتى اختصر الدواء فى علبة من المعدن فيها (كربونات الصودا) يأخذ لمسة منها فى كفه ويبتلعها بماء بارد بعد الأكل ليزيل الحموضة ، وقد ذكر البشرى[2] فى أن العلة فى إحدى السنين ألزمت جنبه للفراش ثلاثة أشهر تعلق فيها بين الحياة والموت ويغلب على الظن أن هذا المرض كان من أثر (السكر) الذى كشف عنه التحليل[3] وقد دعا ذلك البشرى إلى عدم العناية بحفظ ما ينشره من إنتاجه الأدبى . وطلب الشيخ البشرى فى ٣ فبراير عام ١٩٣٣[4] استبدال جزء من معاشه بقطعتين من الأرض تملكهما الحكومة بشارع طومان باى بالزيتون وتقدم بملتمس بهذا المعنى إلى مراقب المعاشات بالماليـــة مع العلم أنه لا يرغب فى أى بدل نقدى ، بل يكتفى من رأس مال المعاش بالمقدار الواجب دفعه حالا من ثمن القطعتين المذكورتين فقط .

ولكن الأيام كانت أعنف من هذا كله فاختاره الله إلى جواره

---

(١) النويرى . نهاية الأرب جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٢) المختار — المقدمة ص ١٦ (٣) المختار جـ ١ ص ١٩٢ .

(٤) ملف الخدمة بوزارة المالية والمجمع .

وهو لا يملك من متاع الدنيا إلا القليل ، وقد قيض الله للأسرة مدافعاً لها بعد وفاته ألا وهو طه حسين المستشار الفني لوزارة المعارف في تلك الآونة فقد جاء في خطاب وزير المعارف في ٨ مايو ١٩٤٣ إلى وزير المالية ما يلي(١) :

توفي إلى رحمة الله الشيخ عبد العزيز البشري بعد أن ترك من جميل الأثر في خدمة الأدب واللغة فأثبت له مكانة جديرة بالتقدير فقد عمرت حياته بنصرة الثقافة العامة بوضع الكتب المدرسية حيناً وإنشاء المقالات الأدبية حيناً، وإذاعة المحاضرات حيناً آخر. هذا فوق ما كان له من عصبية قوية في مجامع الأدباء وأندية العلماء. وقد كان المرحوم موفقاً في حياته العامة. فاستطاع أن يعيش عيشة اليسار التي بدأها في بيت أبيه الماجد، وظلل أبناءه بظل وارف من الترف والغنى. وجمع في سنيه الأخيرة معاشه وقدره ٢٨ ج و ٩٠٠ م ومكافأته وقدرها ٣٥ جنيها وما يرجع له من كتبه ومؤلفاته المقررة في معاهد التعليم، وآثاره الأخرى الطائرة الصيت في مصر والشرق، ومقالاته في الصحف والمجلات، وإذاعاته المتوالية، ولكنه رحمه الله لم يترك وراءه لأولاده ووالدتهم شيئاً يرتد لهم ببعض الربح ولم يورثهم إلا قطعة أرض فضاء. وقد توفي المرحوم عن أرملة وخمسة ابناء منهم ثلاثة قصر ومعاشه قدره ٢١ ج و ٦٧٥ م وهو قدر ضئيل لا يواجه نفقات هذه العائلة الكريمة، ومطالب تربية أبنائه تربية تتفق

---

(١) ملف الخدمة بالمجمع

ومنزلة الفقيد، فنرجو الموافقة على تنازل الحكومة عن نصيبها فيه برآ بأسرته ورعاية للظروف المبينة فى هذا الكتاب .

طه حسين

ويمكن أن نستشف خلال هذا الكتاب أن البشرى لم يكن فى حياته محروماً أو يعيش فى أكناف الحاجة والفقر، إنما كان يحيا حياة اليسار التى تعود عليها فى بيت والده العظيم، فلم يكن يشكو الفقر ولا الخصاصة، وأتاحت له الظروف أن يختلط بالطبقة الحاكمة وأن يجلو حقائقها، ويحلل دقائقها فى مرآته حتى اتخذه كثير من الزعماء والقادة فى مصر صديقا حميما وسميراً مخلصا . وآثره عبد العزيز فهمى باشا فى لجنة الدستور لمراعاته من حيث الصياغة الأدبية بعد وضعه فى القالب القانونى .

وإذا كان الصديق مرآة لصديقه ، فقد كان أحب الأصدقاء إلى البشرى شاعر النيل حافظ بك إبراهيم وطبيب النيل على باشا إبراهيم وكان الثلاثة متوادين متحابين لا يفترقون إلا ليلتقوا ، ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئاً .

فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ (١)

---

(١) تعطوف ، الجزء الأول المقدمة ص ك.

الحياة فى مصر من العبوس والحرج، ومن الفكر والضيق، وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون، ولكنهم لم يسيئوا تعمدا للاساءة، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول. فطرت نفوسهم على التفاؤل، أو خلت نفوسهم من التفاؤل فلم يعرف التشاؤم إليها سبيلا، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا...

تلك هى صور من أخلاق البشرى وحياته الخاصة. وهى صور خاطفة سريعة.. ولكننا يمكن أن نستشف خلالها أشياء كثيرة يمكن أن ندرس أدبه على أضوائها، وذلك لأننا لا يمكن أن ننكر أثر حياة الأديب الخاصة فى أدبه حتى أن الناقدة المعروفة مدام دى ستيل عندما قرأت ملاحم بيرون ووجدت بعض صورها منتزعا من حياته الشخصية قالت: «إن أفكاره كما قال (تاسو) Tasso لاتستطيع أن تستقر فى قلبه... ! وملامحه صورة من نفسه.. ! »

الفصل الثانى

١ — مصادر ثقافة البشرى

اجتمعت فى أدب البشرى صفات عديدة ويعد أدبه من النوع البديع الممتاز الذى يرضى الطبقات جميعا. وتلك ميزة لا تتاح لأكثر الأدباء فى العصر الحديث، بل أنها لم تكن تتاح إلا لنفر قليل من الكتاب فى العصور الاسلامية الماضية. فليس فى كتابته تعمق ولا تقعر يسمو على أفهام العامة ويرتفع فوق مدارك عقولهم. وليس فى كتابته تفكك وتبسط ينزل الى هوة عميقة من الثرثرة والاسفاف، وينبو عن أذواق الخاصة من الناس. ولذلك كان البشرى أديب الناس جميعا. وكاتب الناس جميعا. يحبه من كانت ثقافته أزهرية بحتة لانعكاس أصول هذه الثقافة على أسلوبه. ويحبه من كانت ثقافته عربية بحتة لمسايرة عباراته للاسلوب العربى الرصين فى الشام أو العراق أو غيرهما من البلدان العربية. ويحبه من كان الأدب الشعبى زاده، وكل ثقافته لمجاراته للنكتة المصرية الرائعة ولاصطناعه اللغة العامية فى غير تكلف أو تحفظ أو احتياط.

وفى هذا يقول الدكتور طه حسين :

ومن هنا كان أدب «البشرى» مرضيا معجبا لطبقات المثقفين جميعا . إذا قرأه الأزهريون أعجبوا به لأن فيه شيئا من الأزهر ... وإذا قرأه أبناء المدارس المدنية أعجبوا به لأن فيه روحاً من أوربا. وإذا قرأه أوساط الناس الذين ليسوا من أولئك ولا هؤلاء... أعجبوا به لأن فيه روحاً من مصر . . وإذا قرأه أهل الشام والعراق أعجبوا به لأن فيه الروح العربى الخالص القوى ...»

ويمكن أن نقسم ثقافته إلى عناصر مختلفة نجملها فيما يلى ثم نتحدث عنها بالتفصيل :

١ ـ العنصر المستمد من الثقافة العربية الإسلامية .

٢ ـ العنصر المستمد من الأدب المصرى .

٣ ـ العنصر المستمد من الأدب الأوربى .

عنصر عربى عام:

درس «البشرى» بالأزهر وأتيح له أن يقرأ كتب الدين والحديث والتفسير ، وأن يخوض فيما يخوض فيه الأزهريون أو فيما كانوا يخوضون فيه فى هذه الفترة من أبحاث دينية فى أصول

---

(١) مقدمة الجزء الثانى من المختارات ١

الفقه والتفسير، غير أن طبيعة «البشرى» الأدبية طغت عليه فعكف على كتب الأوائل درساً وبحثا حتى أن الأستاذ شوقى أمين صديق الشيخ البشرى يروى أن البشرى قال له ذات يوم (لقد بلغ من فتنتى بالجاحظ والأصفهانى أنى كنت أبسط الكتاب تحت ضوء مصباح النفط فأقرأ ولا أزال أقرأ غافلا عن نفسى حتى تضربنى الشمس)

ويقول الدكتور طه حسين إنه كان يجتمع بعبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى وكان يلتقون فيها حين يتفرقون عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى ليقرأوا بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . حتى إذا صلوا العصر قرأوا معاً كتاب الكامل للمبرد يحصلون بهذه القراءة الأدب كما حصلوا البلاغة والأصول بقراءة الضحى (١) .

وهكذا عكف «البشرى» على قراءة كتب الأدب بشتى فروعها ومختلف ألوانها . وكانت له على البلاغة ثورة أعلنها فى محاضرة له بالجامعة الأميركية بالقاهرة عام ١٩٣٦ (٢) بعد أن درس عبد القاهر الجرجانى والسكاكى والقزوينى وغيرهم من علماء البلاغة، ومرد هذه الثورة أن سلفنا وجهوا كل عنايتهم إلى النقد الجزئى أعنى نقد الكلمة فى الجملة، أو نقد الجملة فى العبارة ، فإذا كان الكلام نظما

---

(١) مقدمة قطوف الجزء الأول ص س .

(٢) المختار الجزء الأول ص ١٣ .

جرى النقد للبيت مستقلا ، وأحيانا للبيت من حيث اتصاله بما قبله أو بما بعده ، أى النقد (بالقطاعى) على حد تعبير التجار . أما نقد الكلام بمجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعانى واتساق الأقطار ، وتلاحم الأجزاء ، فذلك مالم يكن له من نقدة البلاغة حظ جليل[1].

كما كان مرد هذه الثورة كذلك أنه مادامت للبلاغة علوم مقررة ، ومعارف واضحة ، وقواعد مفصلة مقسومة وقضايا محدودة مرسومة ، فقد أصبح من السهل اليسير على كل من يجيد علمها ويحذق فهمها ، أن يجىء بالبليغ من القول إذا نظم أو نثر ، وهذا شىء يبعد عن الحقيقة ، فلم نر من متقدمى الطلاب الذين قتلوا البلاغة بحثاً وتمحيصاً ، بل لم نر من شيوخهم الذين استهلكوا الدهر الأطول فى درس هذه الكتب وتحقيق قضاياها ومسائلها حتى فروا أبوابها فرياو بروا فصولها بريا ، أحداً يملك فصاحة اللسان وفصاحة البيان . وذلك لأنهم يفتقدون الفطنة والذوق المرهف السليم ، وهذه الفطنة الناقدة . وهذا الحس المرهف وهذا الذوق التام . لقد أغنت جمهرة العرب عن المطالبة بفنون نقد الكلام والتنبيه إلى ما فى مطاويه من المحاسن والعيوب .

ولذلك كان «البشرى» فى ثورته يدعو إلى تليين علوم البلاغة وتمرينها حتى تصبح أشبه بالأسلوب القائم على التفطين والتذويق

---

(١) المختار الجزء الأول ص ٢٩ .

بحيث تتطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها في المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه . فالواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط يدرس علوم البلاغة ولكن بطول ترديد النظر وتقليب الذهن من روائع الآداب إلى الارتياض بكثرة العلاج والتمرين (١) .

هذا رأى «البشرى» في كتب البلاغة القديمة وهذه دعوته لدراسة البلاغة في العصر الحديث . يريد أن يربطها بالذوق ، والذوق كما عرفه (بودلير) هو التطلع إلى غاية أسمى كما يريد أن نخضعها للتمرين والتلقين . أما رأى «البشرى» في كتب الأدب فقد كان أحب الكتاب القدماء إليه الجاحظ ، إذ كان «البشرى» يقدر الجاحظ ويتأثره ويرتضى صحبته ويفاخر بها ، ويحرص عليها ، وعرفه من أمد بعيد . عرفه من الساعة التي أدرك فيها أثر القراءة القائمة على الدراسة والتحقيق ، وكلما زادت قراءته له استوعب فيه ألواناً جديدة من الروعة والجلال والامتاع ، حتى حمل «البشرى» قلم الجاحظ ليجول به في كل موطن وفي كل موضع يريد .

وفي هـــذا يقول البشرى (إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية . جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع ، وهو الأسلوب الجزل السهل الذي ينشده لنفسه كل كاتب يريد الكمال لقلمه ، والابداع في إنتاجه (٢) ....)

---

(١) المختار الجزء الأول ص ٣٠ .

(٢) مجلة المعرفة العدد ١٨ أكتوبر ١٩٣٢ .

هذا ، وقد كان تعمق «البشرى» فى اللغة وتمكنه منها يدفعه دائما إلى حبك العبارة ومراعاة صياغتها، حتى قال الدكتور طه حسين الخصلة الثانية إنه بغدادى[1] الأدب كأشد ما يمكن أن يكون الأديب بغداديا قد عاشر أبا الفرج الأصفهانى وأصحابه فأطال عشرتهم، وتأثر بهم، وانطبعت نفسه وعقله ولسانه بطابعهم، فهو إذا تحدث إلى المثقفين تحدث بلغة الأغانى لا يكاد يصرفه عن هذه اللغة صارف إلا أن يأتى من قرارة نفسه المصرية القاهرية فاذا هو يلقى النكتة المصرية بارعة رائعة لاذعة ، ولكنه لذع يؤلم ولا يؤذى إن أمكن هذا التعبير .

العنصر المصرى :

وتأثر «البشرى» بكتاب عهد الاحتلال، فقد نشأ فى أعقاب الثورة العرابية والاحتلال البريطانى، وانتهت إليه تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى فى الحرية الشخصية والعزة القومية التى ليست الثورة العرابية إلا إحدى ثمارها ، كما انتهت إليه تعاليم الإمام محمد عبده فى الإصلاح الدينى وتنقية الدين من الشوائب والتوفيق بين الإسلام والعلوم الحديثة فى الأزهر. على أن تأثره بالعنصر المصرى ظهر فى صورة أوضح فى تأثره بطائفة حديثة من الكتاب وقادة

---

(١) المختار الجزء الثانى المقدمة (ر)

الرأى فى مصر فى هذه الفترة ، فقد نشـــأت وسط ضجيج هذه الحوادث فى البلاد طائفة من الكتاب اتخذوا الصحف مجالا لأقلامهم، وميداناً لعرض أفكارهم ، وكان لهذه الأحداث كلها صدى عظيم فى نفوسهم ، ووقع كبير فى أذهانهم ، وكان من نتيجة هذا التأثير ما خلفه لنا أولئك القادة والكتاب من ثروة أدبية وصحفية طبعت بطابع السخط على الاحتلال البريطانى ، وطابع الثورة على أوربا وما يرد منها . وأشهر كتاب عهد الاحتلال إبراهيم المويلحى والسيد على يوسف ومصطفى كامل (١).

وتأثر «البشرى» كذلك بالأدب الشعبى المصرى فكان من حسن الطالع أن ظهرت لدينا طائفة من الأدباء أو جماعة من عامة المثقفين وخاصتهم ، كانت تجتمع فى مجالس خاصة ، أو فى بيت من بيوت أحدهم ، أو فى دكان عطار ، أو فى قهوة على قارعة الطريق ، فيتناوبون الأحاديث فى الشئون العامة ، أو يتطارحون الأشعار ، أو يقصون قصصاً وحكايات جدية أو هزلية فى لهجة من المرح والتهكم والنقد اللاذع ، ولا يبقون على أحد من العامة أو الخاصة ، سواء أكان أميراً أم صعلوكا ، أم غنياً أم فقيراً ، أم عالماً أم جاهلا ، وهم يمزجون فى أحاديثهم الجد بالهزل ، والحق بالباطل (٢) .

وكان منهم الشعراء والأدباء ، يقطعون الوقت قبل أن يقطعهم ،

---

(١) أدب المقالة الصحفية للدكتور عبد اللطيف حمزه ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) الهلال يناير وفبراير ١٩٤٥ ص ٦٤ الدكتور أحمد ضيف .

ومن بين هؤلاء الشيخ حسن الألاتى صاحب كتاب مضحك العبوس ورئيس جماعة المضحكخانة ، وكان مقره أمام مسجد السيدة سكينة ومنهم عبدالله نديم الخطيب المفوه والزجال الشهير ، ومنهم محمد عثمان جلال صاحب العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ، وإمام العبد وحاشيته ، والشيخ محمد النجار العالم الأزهرى المعروف وغيرهم من أدباء المقاهى والشوارع ودكاكين العطارين .

وظلت هذه الجماعات الأدبية تضم اليها عناصر جديدة على مدى الأيام ، وتودع من تركها إلى رحمة الله ، حتى أتيح للشيخ البشرى أن ينضوى تحت لوائها ، ويشارك فيما تشارك فيه من أدب شعبى ونكتة عذبة وفكاهة ساحرة .

والمعروف أنه قامت محاولات عديدة بين الأدباء المصريين لإحياء الأدب الشعبى والاهتمام بالنكتة والسخرية والفكاهة قبل البشرى ، فأصدر السيد عبدالله النديم قبل مولد البشرى بخمس سنوات تقريباً ، أى فى ٦ يونيو عام ١٨٨١ جريدة (التنكيت والتبكيت)(١) فى حجم كتاب عادى صحيفة وطنية أسبوعية هزلية ، وهى كما يقول النديم (هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت ، ولغتها لا تلجئك إلى قاموس فيروزبادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا . . . وسخريتها نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا) .

كما أصدر السيد عبد الله النديم مجلة (الأستاذ) وإن بدت أكثر

(١) جريدة التنكيت والتبكيت ٦ يونيو عام ١٨٨١ .

جداً من جريدة التنكيت والتبكيت، ومن قبلها أصدر يعقوب بن صنوع مجلة (أبو نظارة) أقدم الصحف الهزلية المصرية فى الشرق (١) .

ولكن أدب مصر ليس أدباً شعبياً ساخراً كله ، إنما يجمع بين الجد والهزل، والصرامة والفكاهة . ولذلك تأثر «البشرى» بالكتاب المجيدين واللغويين البارعين فى هذه الفـــترة . كما سنفصل ذلك فيما بعد (٢) .

وتشرب « البشرى» بحركة التأليف فى مصر التى أذكتها الثورة العرابية فى الشعر والكتابة والسياسة ، فكان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول ، وظهرت عدة مؤلفات أدبية وقومية واستأنفت الحركة الفكرية مسيرها ، وظهر زعماء كبار مثل : على مبارك والبكرى والمويلحى وعلى يوسف وحفنى ناصف ممن جنحت كتبهم إلى القديم وروعته ، ثم تفتحت النهضة وهبت عليها روح جديدة وظهرت جمـــاعة ممن تأثروا بالروح الغربية مثل قاسم أمين واسماعيل صبرى ولطفى السيد ممن يطلق عليهم المدرسة الحديثة ، وظهرت طائفة من المؤلفات والكتابات القوية التى تحررت من أغلال القديم وقيود التقاليد البالية ، سواء فى اللفظ أم المعنى وبرزت روح التجديد فى الأدب تكتنف الموضوعات والأساليب ، وتشيع فى التفكير والتصوير والتعبير وامتازت الترجمة بدقة النقل وروعة البيان .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية لفيليب دى طرازى ج ٢ ص ٢٨٣

(٢) مقال للشيخ البشرى عن تطور اللغة الهلال ١٩٣٧ ص ٦٤٤ .

يتشرب «البشرى» بهذه الثقافة وتأثر بهذه النهضة فطبعت كتاباته بطابع جديد ألحقه بكتاب النهضة الحديثة .

العنصر الأوربي :

ظل «البشرى» محافظا على ردائه الأزهرى حتى استوفى أنفاسه وفاضت روحه إلى بارئها ، وقد كان البشرى رغم حرصه على هذا الزى الأزهرى ومتمدن الطبع ، أوربى النزعة فى كثير من التصرفات ، وقد شاعت هذه الأوربية فى كثير من كتاباته فى (قطوف) (والمختار) كما تجلت فى (المرآة) .

ويقول الدكتور طه حسين فى هذا الصدد :

«وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد ، وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب ، وكان قد أدمن قراءة (الأغانى) ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة ، وأثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هـــذا الكلام العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو[1] ... »

ويقول الدكتور طه حسين أيضا :

---

(١) قطوف ، ج ١ ، المقدمة

«والخصلة الثالثة أنه قد ألمّ بحظ المترفين الذين عرفوا الحضارة الغربية وذاقوها وتمثلوها، واستمع لأحاديثهم وشاركهم فى هذه الأحاديث فأخذ من هذه الحضارة الأوربية شيئا يسيراً، خفيف الظل، قوى التأثير فى الوقت نفسه(١) ...»

ومن يتصفح كتابات «البشرى» يلاحظ هذه النزعة الأوربية تحاول أن تجد سبيلا لها إلى الوجود، فهو قد يلجأ إلى الألفاظ الأوربية فى وسط الكلام أو آخره ولا يأتى بهذه الألفاظ جزافا، إنما لنكتة بلاغية، أو غاية أدبية فتحدث فى النفس تأثيراً قوياً يهز المشاعر ويستأثر بالقلوب.

وقد يلجأ «البشرى» إلى اقتباس عبارات غربية كقول شكسبير هذه هى المسألة That is the question فى رواية هملت ويتخذ من هذه العبارة عنواناً لمقال له ويطرح المسألة على القراء ليحاولوا الوصول إلى حل لها(٢).

وليس من شك فى أن سخرية «البشرى» لها أصول أوربية كذلك فقد عرف الأدب الفرنسى والانجليزى كثيراً من الكتاب الساخرين الذين انتقـــدوا المجتمع انتقاداً مراً، وحللوا الشخصيات تحليلا كاريكاتورياً بديعاً. ولعل هذا التأثير قد وصل إلى «البشرى» خلال

---

(١) المختار ج ٢ المقدمة.
(٢) فطوف ج ٢ ص ٤٥

أصدقائه المثقفين الذين كان كثيراً ما يقضى أوقاته فى صحبتهم يتجاذبون أطراف الحديث فى الأدب العربى والأدب الغربى كذلك .

وسنحاول عند الحديث عن أدب «البشرى» أن نجلو هذا الموضوع ونتناوله فى شىء من التفصيل .

وكان «البشرى» يحب فرنسا أعمق الحب، وعندما أصيبت بالهزيمة فى الحرب الأخيرة كتب مقالا بعنوان (هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد) ففرنسا عظيمة فى نظره مهما أدركتها الهزيمة ونال منها العدو ، ويقول البشرى فى هذا المقال :

« وإنما حرك فى نفسى هذه المرة ذلك السؤال ، وشبه فيها كل ذلك الشبوب ما استشرى من كثرة الفرنسيين فى السنين الأخيرة من إيثار الدعة والإفراط فى حب الذات وعدم الاكتراث وقلة المبالاة بالمنفعة الوطنية من قريب أو من بعيد والضن بالتضحية فى هذه السبيل بقدر كبير (١) . . »

هـذه بعض لمحات من العنصر الأوربى الذى تمثل فى ثقافة البشرى، ولم يكن هذا العنصر نسيج وحده، أو فريد نوعه، إنما كان مختلطا بالعناصر الأخرى التى كونت ثقافته. فإذا كانت الفرنسية تطغى على بعض الكتاب حتى يصبحوا أصداء لفرنسا وللأدب الفرنسى، والانجليزية تطغى على نفر آخرين حتى يصبحوا أصداء لانجلترا

---

(١) قطوف جـ١ ص ٩٣

أو للأدب الإنجليزى فقد كان البشرى غير هؤلاء جميعاً يمزج العنصر الغربى بالعنصر العربى ، فيخرج من هـــذا المزيج أدباً طريفاً لطيفاً ينتزع الإعجاب انتزاعا ويثير فى النفس عجباً وإعجابا .

الأدباء الذين تأثر بهم:

تأثر البشرى بكثير من الكتاب فى العصر الحديث والعصر القديم، ولعل أكبر أديب عربى تأثر به البشرى فى العصر القديم هو الجاحظ، أما فى العصر الحديث فإنه تأثر بالمويلحيين الكبير والصغير.

وكان المويلحى الكبير يصدر جريدة تسمى مصباح الشرق وقد قال رحمه الله فى هذه الجريدة :

(من أكثر من ثلاثين سنة خلت ولما أزل بعد فى أيام الفتوة وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات ، دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة ، ويقوم بتحريرها إبراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود . لقد كان هذا (مصباح الشرق) شيئاً طريفاً حقاً . . لقد كان أبلغ من طريف . فانه لأعجوبة حقا . لقد كان هذا (مصباح

الشرق؟؟ أبلغ من أعجوبة ، إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى هذه الأيام . . .) (١) .

تأثر «البشرى» بأسلوب المويلحى فى السخرية والتهكم ورسم الصور اللفظية الكاريكاتورية للأشخاص ، كما تأثر بما كان يصطنعه المويلحى من ألوان التشبيه وفنون الاستشهاد والتمثيل فى بلاغة بليغة ولفظ جزل متخير ، ودباجة مشرقة وصيغ مونقة ، حتى أمسى (المصباح) على حد تعبير البشرى نفسه مصباحا يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو أمنوا بنظم الكلام ، وأصبح مصباح الشرق أفخر مدرسة لطلاب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد .

ويعترف «البشرى» بعد ذلك أن مصباح الشرق كان عنده المثل الأعلى للبيان العربى ولهذا كان شديد الاكباب على قراءته وتقليب الذهن فى روائع صيغه وطرائف عباراته ، حتى لقد كان يشعر أنه يرتشفها ترشفاً لتدور فى أعراقه ، وتخالط دمه وتطبع ملكته على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف ، ولكن (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) (٢) .

وكان «البشرى» فتى مولعا بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين

---

(١) المختار الجزء الأول ص ٢٩٣

(٢) المختار الجزء الأول ص ٢٩٧

فى ذلك العهد ، فلما أرسل محمد المويلحى نجل إبراهيم المويلحى فى الصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زاده وزاد لذته به فتونا .

ولعل البشرى عرف إبراهيم المويلحى عندما كان يراه فى زيارة والده ، وكان البشرى يصاحب أباه فى زيارة المويلحى بعمارة البابلى فوجد فيه قوة لسن ، واشتعال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة وسعة علم بالزمان وأحوال الناس .

ثم عرف المويلحى الإبن عن طريق صديق حديث العهد بصداقته ، قديم العهد بصداقة المويلحى وما كان أبلغ دهشته واغتباطه حين قال له : « إن المويلحى يحب أن يراك ، ولعله عرف بك من أيام كنت ترسل القول فى الشيخ فى فتنه الزوجية شعرا ونثرا » وتواعدا على أن يذهبا إليه فى الأصيل (١) .

وهكذا أخذ البشرى يتلقن أساليب الكتابة عن إبراهيم المويلحى وابنه محمد المويلحى وكان أدبهما بمثابة الأساس الأول فى ثقافة البشرى المصرية إلى جانب ثقافته العربية والأوربية .

اتصل البشرى بالشيخ على يوسف وتأثر بكتاباته تأثراً عظيما وقال البشرى :

« لقد عاشرت الرجل ما عاشرته ، واستمكن مابيننا من الود

---

(١) المختار الجزء الأول ص ٢٩٩

والألف إلى الحد الذى يبعث على الاعتقاد بأنه ما كان يخفى عنى شيئا حتى من نجوى نفسه فى الأسباب العامة . وشهد الله ماسمعت منه قط هذا الكلام الذى قيل ضده» (١) .

وقد كان البشرى يعكف على قراءة المؤيد شأنه فى ذلك شأن الشباب المتحمس فى هذه الفترة ، وكان يرفده بالمقالات البارعة أهل الرأى والأدب فى البلاد من أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وفتحى زغلول وحفنى ناصف وكثير غيرهم من أصحاب البيان .

وكان البشرى يحرص دائما على قراءة المؤيد وعنها يقول (وإذا قلت المؤيد قلت شطر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العظام ...)(٢) والواقع أن المؤيد كان لسان الشعب المصرى فى ذلك الوقت، فكان كلما حزب الأمر، وادلهم الخطب، نظر الناس إلى هذا الشيخ على أنه لسان الأمة الناطق، وقلمها الذى لاتملك غيره فى الرد على الخصوم أو الدفاع عن حقوق هذا الشعب الذى يعانى من ظلم الغاصبين الشيء الكثير.

ووجدت إلى جانب المؤيد جريدة اللواء . فبينما كانت المؤيد تطلع على الناس بأساليبها الهادئة الرزينة التى تعرف طريقها إلى العقول

---

(١) المختار الجزء الأول ص ٢٨١

(٢) المختار الجزء الأول ص ٢٧٨

السليمة ذات الطابع الواقعى السياسى، كانت اللواء تطلع على الناس بأساليبها الحماسية المعروفة بتأثير مصطفى كامل (١) .

نهل البشرى من كل هذه المناهل وارتوى منها وتأثر بها ، أضف إلى ذلك أنه كان يقصد ندوات أهل الفكر والأدب ، ويجتمع بدار المويلحى بأقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان مثل السيد توفيق البكرى والسيد محمد البابلى ومحمد بك رشاد وحافظ بك ابراهيم وعبد الرحيم بك احمد وحافظ بك عوض والسيد عبد الحميد البنان (٢) .

وكانت جلساتهم تطول فى سحر وإيناس وطرق لمختلف موضوعات الأدب والحكمة، فنشأ البشرى مؤثراً لهذه الندوات مغرما بها إلى حد كبير .

كان الشاعر المعروف حافظ ابراهيم من أحب الشخصيات إلى قلب البشرى ، وأقربهم إلى نفسه ورويت بين البشرى وحافظ نوادر عديدة، وقد قال البشرى عن حافظ (٣) :

كنت أصحب حافظا ويصحبنى وكنت ألقاه ويلقانى . . .

وكنت أسمر معه ويسمر معى . . . على أننى لم أكن وحدى الذى أظفر بهذا الحظ من حافظ ابراهيم ، فمن صاحبوه

---

(١) أدب المقالة الصحفية ج ٤ ص٦٨

(٢) المختار ج ١ ص ٣٠٠

(٣) قطوف ج ٢ ص٧٣

ولازموه كثير ، ومن غشوا مجالسه واستمتعوا بملحه وطرائفه أكثر. لقد عاشرت حافظاً وصاحبته ولازمته أكثر من خمس وعشرين سنة متوالية متصلة حتى مضى إلى فضل الله ورحمته، ومع هذا لا أدرى أكان لى أصدق الأصدقاء، أم كان لى أعدى الأعداء ».

واتصل البشرى كذلك بشوقى وكان يختلف إلى كرمة ابن هانى، بين الحين والحين حيث يعقد شوقى ندواته مع أقطاب الأدب والفن، يتطارحون الشعر ويتباحثون فى الأدب ، وقد رسم البشرى لصديقه شوقى صورة جميلة فى مرآته، كما وقع له أكثر من مرة أن راجعه فى بعض شعره فرأى أنه قد مس فيه معنى رفيعاً جداً، ولكن اللفظ أقصر من أن يطوله بواضح البيان. ويزعم البشرى أن محصول شوقى من متن اللغة لم يكن يوائى هذا القدر الذى يشعره استكثاره من الغريب فى قصيده ، فلقد كان يسأله معنى الكلمة المفردة تكون قد خلت فى بعض شعره، فاذا هو لا يدريه فى بعض الأحايين. ويرجح البشرى أن الرجل لم يكن يعمد بهذا إلى التكثر بسعة العلم ووفرة المحصول فى اللغة، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعانى ما لا يتيسر له أداؤه باللفظ الشائع. كما كان يطيل أحياناً كثيرة فى القصائد إطالة يحتاج معها إلى الكد فى التماس القوافى(١) فكان يضطر فى هذا وفى هذا إلى التماس الألفاظ من المعجمات ينتزعها انتزاعا .

---

(١) المختار ج ١ ص ١٢٤

تلك بعض آراء البشرى فى شوقى، وهى آراء لا تنقص من منزلة شوقى عند البشرى، ولكنه اجتلاها خلال اتصاله به، فقد كان شوقى فى نظره إمام المجددين. جال بشعره فى كل غرض، وقصد كل قصد، وأصاب من كل معنى، وطال نفسه فى أكثر قصيدة إلى ما لم يطله كثير من أنفاس الشعراء، فما أسف ولا تخلخل، ولا ضعف ولا فسلت أخيلته، ولا شاهت معانيه، بل لقد يأتى أكثر ما يأتى بالجوهرى الرائع من حر الكلام.

واتصل البشرى بالمنفلوطى وتأثر به، فقد أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد، ورأى الأدباء فى الفن الجديد ما لم يروه فى فقرات الجاحظ ولا سجعات البديع، وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة، وكان نفر من المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم العزيزة أمام (الرواق العباسى)(١) يتقارضون الأشعار، ويلهون بأغفال الناس، ويترقبون مؤيد الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسباع، وطه حسين مرهف أذنيه والبشرى مسبل عينيه، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف.

وكان المنفلوطى من القديم قد تأثر بابن المقفع وابن العميد ومن الحديث بجبران وميخائيل نعيمة، ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإلهام والإيحاء، لا دخول التقليد والاحتذاء، فله من الأولين

---

(١) الزيات، الرسالة ١٩٣٧ العدد ٢١٠ ص. ١١٢١

إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة، ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحداً من هؤلاء جميعا .

تأثر البشرى بالمنفلوطى فى بعض أسلوبه وقوة عاطفته، غير أنه لم يكن يجاريه فى استهواء الناس بأسلوبه لاستهوائهم بأفكاره . ولما صقل السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رواية مجدولين المترجمة عن الفرنسية وجلاها فى عربية بديعة ، نشر البشرى فى جريدة الأهرام تقريظاً لها جاء فيه :

« فإذا بهرت قراءك مجدولين فلأنهم يسمعون فيها أحاديث عواطفهم، ويرون فى أثناء سطورها عصارة قلوبهم، فما يدرى أحدهم إذا أطرد فى قراءتها، أهو فى حديث نفسه، أم أنه يتلو قصص غيره فى كتاب . . . . » (١)

وعاصر البشرى الرافعى ، ولكن مصطفى صادق الرافعى كان يختلف عن البشرى فى أدبه ، وتغلب على الرافعى صفة المنشىء على صفة الكاتب، على أن هذا لا يمنع أن تجد بعض التشابه بين الأسلوبين فى بعض الأحيان على النحو الذى سنفصله فى فصل آخر. وعاصر البشرى كذلك العقاد والمازنى وطه حسين ، ولكنه استطاع أن يقف إلى جوار هؤلاء كنظير ، له مالهم من مجد أدبى وتراث فنى .

---

(١) الأهرام ١٨ نوفمبر ١٩١٧.

كما اتصل البشرى بالشيخ حسين المرصفى أثناء تدريسه له بالأزهر ، وكان البشرى يعرض عليه كبار المتأدبين فى عصره من أمثال البارودى وعبد الله فكرى والمنفلوطى منظومة ومنثورة فيهذب وينقح ، ويهدى إلى الأجمل والأصلح ، وألف الشيخ المرصفى كتاباً جليلا دعاه (الوسيلة الأدبية) لايزال يرجع إليه المتأدبون حتى اليوم فى البلاغة ، كما ألف رسالة دعاها (الكلم الثمان) تحدث فيها عن معانى الأمة والوطن والحكومة والعدل والنظام والسياسة والحرية والتربية ، ولعل البشرى تأثر فى كتابه (التربية الوطنية) للمدارس الثانوية بهذا الكتاب .

٢ — أثر الأدباء فى أسلوب البشرى :

كان أسلوب البشرى وسطا بين الترسل والسجع ، فواصله بعيدة المدى ، ولكنها تقصر حينما يمزح أو يداعب ، حتى أصبحت كتابته تعرف بالازدواجات البشرية ، وأغلب أسلوب البشرى مستمد من أسلوب الجاحظ على النحو الذى بيناه . ففى أسلوب البشرى نزوع إلى التهكم ، ونزوع إلى استغلال أوضار المجتمع ليفضحها ويكشف عنها الستار ، ولكن الأستاذ متى أراد أن يخلو إلى الجد فيما يكتب عنه وما يبحث فيه . كان الشأن لديه أن يبلغ الأوج جودة وحسن أداء ، وسداد رأى ، وروعة تفكير ، لأنه من أولئك القلائل الذين لا ينطقون إلا بما يعرفون ، ولا يصدرون فيما يكتبونه إلا

عن دراسة مستفيضة واستقراء موفور ، وقد سجل البشرى إعجابه بالجاحظ وتقديره له فى أكثر من مقام كقوله فى مجلة المعرفة :

« أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثره وأرتضى صحبته ، وأفاخر بها وأحرص عليها . لقد عرفته منذ أمد بعيد ، عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثر القراءة القائمة على الدراسة والتحقيق ، وكلما زادت قراءتى له كلما استوعبت فيه ألواناً جديدة من الروعة والإمتاع . إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع ، وهو الأسلوب الجزل السهل الذى ينشده لنفسه كل كاتب يريد الكمال لقلمه والإبداع فى إنتاجه . وإن الجانب الفكاهى فيه يصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أرادأن يسخر وكلماشاء أن تحز نقداته فى الرقاب ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة فى كشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه .

لقد كان الجاحظ واحد عصره وأكبر الظن عندى أنه سيبقى واحد البارزين فى كل العصور ... »(١)

ونحن نستطيع أن نستشف من هذه الفقرة أشياء كثيرة منها أن الجاحظ كان المثل الأعلى للبشرى وأن البشرى كان يحاول أن

---

(١) مجلة المعرفة ، المجلد الثالث عدد ١٨ سنة ١٩٣٢ أول أكتوبر ص ٦٥٤ .

يسير على موال كتابته ويقتفى منهجه فى السخرية والتهكم والفكاهة وكشف سوءات المجتمع حتى حمل البشرى قلم الجاحظ وجال به فى كل موطن وجاس به فى كل موضع يريد .

أنظر ما كتبه الجاحظ فى الكتاب ، ثم انظر بعد ذلك إلى ما كتبه البشرى فى كتاب ماجدولين لمصطفى صادق الرافعى ، ثم حاول أن تقارن بين الأسلوبين ، فإنك لا شك واجد كثيراً من المشابه بينهما ، وتجد الجاحظ أستاذ البشرى فى الأسلوب .(١)

«الكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا ، وإن شئت كان أبين من سحبان وائل . . . . وإن شئت كان أحيا من باقل ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه . . . »

وأكبر الظن أنك لاحظت السجع الذى يصطنعه الجاحظ فى كتابته ، والتكرار الذى ينزع إليه ، والمقابلة بين الألفاظ ، كما لاحظت (التلوين الصوتى) (٢) فى أسلوبه على حد تعبير الدكتور شوقى ضيف أو الإيقاعات الموسيقية التى تشيع فيه فى نفس واسع مسترسل .

وكتب البشرى فى ماجدولين يقول للمنفلوطى :

« قرأت كتباً وأقاصيص لأعيان الكتاب والمؤلفين متقدميهم

---

(١) الحيوان جـ١ ص ٣٨ .

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٦٦ .

ومن تأخر منهم ، وليس شيء منها يقل عن ماجد ولين غرابة حوادث ، وقوة خيال ، وصحة معان ، وفصاحة أسلوب ، ورشاقة لفظ ، وصفاء ديباجة ، ولقد امتلأت بتلك المعانى التى يبعثها فى نفس الفتى مرآى الشمس إذا أبرزت من خدرها ، والوردة إذا خرجت من كمها ، والبدر إذا تألق فى السماء ، والآل إذا ترقرق على متن الصحراء ، والبرق إذا لمع ، والسحاب إذا همع ، والحمام إذا سجع ، والعبير إذا سطع ، والزهر إذا ظلله الندى . . . .) (١)

وليس من شك فى أن هذه القطعة من أسلوب البشرى ، تحمل التلوين الصوتى الذى اشتهر به الجاحظ كما يشتملها السجع فى بعض الأحيان على النحو الذى كان يتمثل فى أسلوب الجاحظ ، وهذه القطعة تلجأ إلى تحليل المعانى ومراعاة النظير مثلها فى ذلك مثل الجاحظ كذلك .

فلا غرو إذن أن نقول إن البشرى كان تلميذ الجاحظ وحامل قلمه فى العصر الحديث .

وقد سبق أن ذكرت أن البشرى قد تأثر بالمويلحى الكبير والصغير وأحب أن أذكر هنا أن البشرى كان يدمن قراءة المويلحيين ، ويعجب أشد الإعجاب بصاحب جريدة مصباح الشرق ويتخذ من مقالاته فى الجريدة المثل الأعلى فى البلاغة فى تلك

---

(١) المختار ج ١ ص ٣٤٢ .

الفترة ، ولشد ما كان البشرى يعجب بحديث عيسى بن هشام ورحلته مع المنيكلى باشا حكمدار السودان فى عهد محمد على الكبير وتجواله فى محل الشرطة والبوليس والنيابة ومحكمة الاستئناف والمحكمة الشرعية ، وطوافه مع الأطباء والأعيان والتجار والعمدة وغيرهم على النحو الذى جاء فى حديث عيسى بن هشام .

ولعل البشرى أعجب أشد الاعجاب بحواره العذب الجميل ونقده الساحر المر ، فاقتفى أثر مؤلفه فى كتابته ، فجاءت بعض نقدات البشرى فى المختار وغير المختار حافلة بأسلوب الحوار البديع والسخرية المريرة التى تصل إلى أعماق القلوب .

وتأثر البشرى بأسلوب المنفلوطى ، وكانت مصر قبيل الحرب العظمى الأولى تتأرجح بين مدارس متباينة المذاهب الأدبية ، بين المدرسة الرومانسية التى يتزعمها مصطفى لطفى المنفلوطى (توفى عام ١٩٢٤) والهزل الموضوعى كما هو عند المويلحى ، والطريقة التحليلية الواقعية كما انتظمت فى مدرسة أحمد لطفى السيد .

وكانت المدرسة الرومانسية المفرطة والمدرسة التحليلية الواقعية ، مركزين للتقاطب فى الأدب العربى فى مصر ، وكانت موجة أدب المهجر تساعد على تمكين المدرسة الرومانسية المفرطة .

وكان المنفلوطى متأثراً فى لغته بابن المقفع وابن العميد من كبار المنشئين العرب ، وفى فنه بجبران ونعيمة ، ومن هنا كان يعتبر أدبه

رد فعل الأدب المهجر من إطار الجو الأدبي في الشرق العربي .

ولا يزال في مصر، ومصر وحدها، نفر من الأدباء متأثرين بكتابة المنفلوطي ونذكر منهم أحمد حسن الزيات صاحب (الرسالة والرواية) أما المدرسة التحليلية فقد بدأت وجودها مع نفر من الكتاب التفوا حول أحمد لطفي السيد الذي يعتبر في مصر منشىء الجيل الجديد، واتخذت هذه الجماعة (جريدة الجريدة) منبراً لها حتى كانت مفاجأة الحرب الأولى فصرفتها عن أغراضها، فلما انتهت الحرب العظمى عادت الجماعة وانتظم شملها واتخذت من السياسة منبراً للإعلان عن غرضها ، والدعوة إلى غاياتها، ومن أبرز رجالها الدكتور هيكل وطه حسين(١)

فما موقف البشري من هذه المدارس ؟ الواقع أنه كان مزيجاً من هذه المذاهب الأدبية . فتأثر تارة بالمدرسة الرومانسية ، وتارة تأثر بالمدرسة التحليلية وفاض على هذا كله بروحه وشخصيته ، فخرج نوع جديد من الأدب يثير التقدير ... والإعجاب . عرف بأدب البشري .

بكى المنفلوطي على الشباب ، وسكب على زواله عبرات هتانة صاغها في عبارات مؤثرة ، فكتب البشري ينعى شبابه المولى وعمره الذاهب ...

---

(١) راجع كتاب الدكتور اسماعيل مظهر (توفيق الحكيم) ١٩٣٩ ص ٢٤ .

قال المنفلوطي في النظرات :

« ليكن ما أراده الله أما ما أمامي فالله يعلم أني ما ألممت بمعصية إلا ترددت فيها قبل الإلمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوماً من الأيام في آيات الله وكتبه ولا في ملائكته ورسله ، ولا في قضائه وقدره ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير عظمته ، وما أحسبه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك .

وداعاً أيها الشباب ... فقد ودعت بوداعك الحياة ، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء :

أيا عهـــد الشباب وكنت تندى
على أفيـاء سرحتـــك السلام[1]

وقال البشري :

« يا ويلتاه ! أكذلك يذهب الشباب قبل أن يجيء ، ويدبر قبل أن يقبل ، ويودع الحياة قبل أن يسلم .

ياعجباً للهلال يغشاه المحاق ولما يبلغ التمام ، وللورد يلحقه الذبول ولما تتفتح عنه الأكمام .

---

(١) ألحان الغروب ، لطاهر الطناحي ص ١٢٨ .

يا عجباً للشمس تشعر للغروب والرجوع ساعة يؤذن مشرقها بالبزوغ والطلوع .

ويا رحمتاه للروض إذا ذبلت فى مطلع الربيع أزهاره ، وجفت قبل النضج ثماره ، وسكن من الشجر اصطفافه ، وتساقطت أوراقه ، وسكن النسيم ، وكان العهد به أن يتنسم ، وسكت العندليب وكان الظن به أن يشدو ويتنغم ! »

وعندى أن هذه الصنعة التى تتمثل فى هذه القطعة ليست إلا نفحة من نفحات المنفلوطى الذى كان كثيرا ما يتكلف مثل هذا الأسلوب ، وكثيرا مايعمد إلى وصف الطبيعة هذا الوصف البديع الرائع .

أما الرافعى فقد كان من أنصار اللفظ أكثر من أنصار المعنى رغم الدفاع العظيم الذى حاول أتباعه أن يثبتوه ضد خصومه حتى قال المازنى نفسه ذات مرة :

« وكان الرافعى أعلم أهل العربية بالعربية ، وكان عيبه أن سعة علمه باللغة العربية تغريه وتغلبه ، وأن جموح خياله يشط به فيجىء الكلام ملتوياً معقداً ، والمعانى بعيدة مستكرهة » (١) .

ولا يختلف البشرى عن الرافعى فى صنعته فى بعض الأحيان

---

(١) العدد السادس من مجلة الحديث ص ٤١٩ عام ١٩٣٧ .

وإن كانت هذه الصنعة أحيانا مقبولة وتضفى عليه ألوانا مختلفة من الفتنة والجمال .

أنظر إلى ماقاله البشرى فى إحدى خاطراته على لسان مغرم صب [1] « إننى مارأيت درة قط إلا حسبت أنها انتزعت من ثغرها ، ولا أبصرت مرآة قط إلا ظننت أنها استعبرت من صدرها ولا طالعت وردة ناضرة إلا خلت أنها قطعت من خدها ، ولا تمثل إلى غصن البان إلا أحضرنى صورة قدها ، ولا سطع لى عبير إلا شعرت أنه من شذاها ، ولا فضحنى نور إلا قدرت أنه من إشراق محياها ولا سمعت شدو القمرى إلا سمعتها تتكلم وتلغو ولا طاف بى النسيم إلا تمثلتها تلعب وتلهو ، ولا طلعت الشمس إلا رأيتها فيها ولا استتم البدر إلا خلتها تعلو على الدنيا كبرآ وتيها » .

وانظر إلى ماقاله الرافعى على لسان صب مغرم :

« وهل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه ويتلألأ بنضرته حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، كأن علامة الفجر فيه إنما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات الصبح ، عليلة من شدة الرقة ، ذابلة من فرط الجمال مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حى فرح لانسمات من الجو .

وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه كأن شيئا بدعا لم يكن

---

(١) المختار جـ١ ص ١٦٢ .

ممكنا فأمكن ! أو كان من حمرة خديه وشفتيه خمر القلب رؤيتها شربها وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى فما هو إلا أن ينظر وجهك الناضر حتى يخالط قلبه . . !) (١)

ففى كلا النموذجين ذكر الورد والفجر والصبح والنسيم وتكاد تكون الصنعة واحدة لولا أن الرافعى يعمد إلى الإغراق فى المعنى وقد يكون هذا الاغراق جميلا فى بعض المواضع مثل قوله إن هنالك جوا من شعور لانسمات وأن رؤية الوجـــه تسكر كشرب الراح .

تلك هى بعض المؤثرات القديمة والحديثة التى فى أسلوب البشرى فإذا أضفنا إليها المؤثرات الأجنبية كالثقافة الفرنسية التى كانت تدفعه إلى أن تستخفه اللفظة الفرنسية فتزلق بين الكلام العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو (٢) تبينا أسلوب البشرى .

وكانت سخرية البشرى تلحقه بكثير من الكتاب الساخرين فى أوربا كفولتير وموليير وبرناردشو وأوسكار وايلد وغيرهم على النحو الذى سنتناوله بالتفصيل فى فصل قادم بمشيئة الله تعالى .

---

(١) أوراق الورد ص ٤٨ .

(٢) قطوف : المقدمة الجزء الاول .

الفصل الأول

آثـــاره

ينبغى أن نسجل فى مستهل هذا الفصل أن البشرى لم يترك كتبا مدونة تسير على النهج العلمى فى التأليف وتخضع لما يخضع له البحث العلمى من أساليب ، إنما ترك لنا مقالات أدبية جمع بعضها فى حياته ثم نشر ، وجمع بعضها الآخر بعد مماته ثم قيض له الله من يذيعه على الناس وينشره على الملأ . ومثال النوع الأول كتاب المرآة والمختار بجزأيه ومثال النوع الثانى كتاب قطوف بجزأيه .

وسنحاول أن نعطى القارىء صورة موجزة عن آثار البشرى .

١ — المرآة :

كان البشرى يطالع قراء (السياسة الأسبوعية) بسلسلة من المقالات يتناول فيها شخصيات قادة الرأى والسياسة والفكر بالتحليل والنقد، فكان لمقالاته دوى كبير فى جميع الأوساط ، وكان

العظيم منهم يتلقف السياسة كل أسبوع فى شوق ولهفة عله يجد البشرى تناوله بالتحليل أو النقد والتجريح .

ثم سأله صديق كريم المنزلة عنده أن ينشر هذه المقالات فى كتاب فتعذر عليه ذلك دهراً إلى أن أتيحت له الفرصة، فجمع منها طائفة ثم ضم إليها مرايا جديدة واستدرك ماعسى أن تكون فوتت العجلة من فنون المعانى وعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام وضبط ألفاظ الكتاب بالشكل وفسر مايحتاج منها إلى تفسير، ثم نشرها على الناس بعد أن صدر كل مرآة بصورة صاحبها الكاريكاتورية من رسم الفنان الأشهر الأستاذ (سنتين) المعروف بين الأوساط الصحفية بفنه الكاريكاتورى المعبر .

وقد تناول البشرى فى هذه المرايا بعض أقطاب السياسة مثل سعد زغلول وزيور وعبد الخالق ثروت وصدقى وغيرهم ، كما تناول بعض أقطاب الأدب مثل حافظ وشوقى وبعض أقطاب الطب مثل على إبراهيم ومحجوب ثابت وغيرهم .

وامتازت هذه المرايا بصورها الكاريكاتورية فى التعبير وفنها العذب الساخر وجرأتها الشديدة وصراحتها التامة ومزجها السخرية بالعطف فى بعض الأحيان والتجائها إلى الألفاظ العامية فى مواضع مختلفة حتى يبدو أكثر واقعية عند تناوله الأشخاص والأحداث .

٣ — المختار :

ويعد كتاب المختار بجزأيه أيضاً مجموعة من المقالات التى نشرها البشرى فى الصحف والمجلات الأدبية والصحفية المختلفة ، ولم ينشر البشرى هذه المقالات فى كتاب إلا بعد أن ألح عليه أصدقاؤه فى نشرها ولعله وافق على هذا النشر حينما لحقته شكاة ألزمت جنبه الفراش ثلاثة أشهر تعلق فيها بين الموت والحياة ولعل جانب الموت على حد تعبيره كان أرجح وكانت حجته أسطع . فلم يبق بد من أن يزكى النساخ فى المكتبات العامة فرجعوا إليه بكثير من المقالات .

ويشتمل الجزء الأول من كتاب المختار على أبواب ثلاثة أولها باب الأدب ، وقد تحدث فيه عن تطور الأدب العربى وموضعه بمصر اليوم، وتناول عصور الأدب العربى ودخول الصنعة فى الشعر وضرورة إنشاء أدب قومى وحيرة الأدب المصرى، وعالج موضوع القصص فى الأدب العربى وفوضى النقد الأدبى وغير ذلك من المباحث الأدبية التى يمكن أن نستشف منها آراءه فى الأدب ونظرته إلى الإنتاج الفكرى .

ويشتمل الباب الثانى من الجزء الأول من هذا الكتاب على مقالات مختلفة فى الوصف كوصف الزفاف الملكى ووصف الشباب المسولى ووصف الطائرة والراديو ويقول الدكتور طه

حسين إن اروع وصف قرأه للبشرى هو وصفه للطائرة بين ألماظة والدخيلة وشعور الجميع فى ذلك الوقت .

وقد ألحق بهذا الباب بعض مقالات فى التقريظ مثل مقاله فى شوقى وماجدولين .

أما الباب الثالث من الجزء الأول فمجموعة من التراجم لرشدى باشا والشيخ على يوسف ومحمد المويلحى وبعض التعزيات والمراثى كتعزيته إلى الدكتور نجيب محفوظ باشا ورثائه لأحمد عبد الوهاب باشا وراغب بك عطية .

وقد ظهرت فى التعزيات والمراثى بلاغة البشرى كمنشىء لا ككاتب غير أنه أوضح لنا فى تراجمه كثيرا من الأمور التى تنير السبيل أمام الكتاب والباحثين .

ويشتمل الجزء الثانى من كتاب المختار على بابين ، أولهما فى الفن والمتفنين ، وقد أدرج فيه ماهية الفن وتطور كلمة الفن ثم عالج البلاغة وبين قيمتها من الوجهة الفنية وانتقل إلى الموسيقى فتحدث عن تطور الموسيقى المصرية فى العصر الحاضر والأغانى المصرية والتجديد والمجددين ثم عرض سيرة بعض الفنانين مثل سلامة حجازى ومحمد العقاد . . . والشيخ سيد درويش والشيخ أحمد ندا عرضا خلاباً جذاباً . . . .

وثانى هذين البابين باب المداعبات والأفاكيه حيث تعرض

للنكتة المصرية فى العصر الحديث وأعلامها كإمام العبد وأتباعه وقص علينا نوادر التطفل والطفيليين فى ذلك مثل الجاحظ عند ما كان يقص علينا نوادر الحمق والنوكى والطفيليين والبخلاء ، وعاش البشرى فترة من الوقت مع الباعة الجوالين وماسحى الأحذية والشحاذين وتقلب معهم فى حياتهم وأحوالهم فى هذا الباب الأخير فرسم على ثغورنا كثيراً من البسمات وبعث فى صدورنا كثيراً من الانشراح ....

ويشتمل باب المداعبات والأفاكيه على موضوعات أخرى طريفة تعالج مشاكلنا الاجتماعية وحياتنا العامة وتصور أولا وقبل كل شىء مزاج البشرى الذى كان يميل إلى الدعابة والتفكهة وينزع إلى المرح والتبسط والسخرية من الأوضاع القائمة ابتغاء الوصول إلى كمال أسمى .

٣ — فطوف :

لم يتح لهذا الكتاب بجزأيه أن ينشر إلا بعد وفاة البشرى بأعوام عدة وقد نشرته دار الكاتب المصرى بإشراف الدكتور طه حسين عام ١٩٤٧ وبعض هذه المقالات إسلامية مثل أعظم يوم فى تاريخ العالم وفى الهجرة وخواطر تلهمها ذكرى الهجرة ويسر الإسلام وبعضها أدبية مثل بين الأدب والحرب ومهمة الأديب فى

الشرق أن يكون أديباً شرقياً وبعضها سياسية مثل هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد وكتاب مفتوح من جرزيانى إلى القائد السيد عمر المختار وبعضها اجتماعية مثل كيف كان الشبان يزوجون وفى الطفولة المشردة وما إلى ذلك وبعضها فى الفن مثل تقاليد الفن فى مصر والموسيقى المصرية قديمها وجديدها وعباقرة الفن وبلاغة الملحين وغير ذلك من المقالات الطريفة ومقال جديد فى المرآة عن الدكتور على ابراهيم لم يلحق بكتابه الأول .

آثار أخرى :

وللبشرى آثار أخرى مثل كتاب التربية الوطنيـــة للمدارس الابتدائية وقد اشترك فى وضع بعض الكتب المدرسية ككتاب تاريخ الأدب العربى والمنتخب من أدب العرب ، ويقول الأستاذ شوقى أمين المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى الجزء الخاص بالأدب الحديث أن الكتاب الأخير قد وضعه البشرى وحده ونحن لا نستبعد ذلك وإن كنا لا نستطيع أن نقطع فيه برأى لأن ذاتية الأديب لا تتمثل فى هذا الكتاب قدر موضوعية البحث . . .

غير أننا يمكن إن نقول أن البشرى قد أضفى على كتب التربية لوناً رفيعاً من الأدب الإنشائى كقوله :

وطنك الذى أقلتك أرضه . . . وأظلتك سماؤه . . . وروالك

ماؤه . . وأحياك هواؤه . . فى حجره ربيت . . وبخيره غذيت . . وفيه مطمح عزك وهنائك . . وإليه مطرح أملك فى الدنيا ورجائك . . لا حول لك بعد الله إلا بحوله . . ولا شرف لك إلا بعونه وطوله . . أليس قد اختلطت أرضه بعظام آبائك وأجدادك . . . وستختلط أرضه بعظامك وعظام أولادك وأحفادك فنهـــا يلتمس حسبك ومجدك . . وفيها يخط بعد العمر لحدك . فتدبر بعد هذا أمرك فلن تجدك إلا الوطن ولن تجد الوطن إلا إياك(١) .

وحاول البشرى أن يجارى أسلوب الباحثين المجددين فى التربية غير أنه لم يوفق إلى ذلك توفيقـاً تاماً ولم تتح له ثقافته أن يعرض لآراء الفلاسفة وقادة الفكر فى أوربا فى الوطن والأمة وغيرهما ويتناولها بالبحث والنقد والتحليل غير أن الذى يعزينا فى ذلك أن الكتاب موضوع المدارس الإبتدائية . والمدارس الابتدائية فى مناهجها لاتحتاج إلى كل هذا العناء فى البحث والتعب فى سبيل الإحصاء والاستقصاء . . .

ولكن مقالات البشرى الأخرى فى الكشكول والثقافة والرسالة تعد ثروة أدبية لا غنى عنها .

---

(١) التربية الوطنية لعبد العزيز البشرى ص ١٠ عام ١٩٢٨

٤ — البشرى الشاعر :

لا أعرف أن فصلا من هذه الرسالة كلفنى من المشقة والعناء مثل ما كلفنى هذا الفصل عن شعر البشرى فقد قرأت فى المختار أن البشرى نظم الشعر وجاء على لسانه فى مقاله (محمد بك المويلحى) .

(وما كان أبلغ دهشتى وإغتباطى حين قال لى صديقى إن المويلحى قد طالعه بأنه يحب أن يرانى ولعله عرف بى من أيام كنت أرسل القول فى الشيخ فى فتنه الروحية شعرا ونثرا .) (١)

فالبشرى إذن قد نظم الشعر فى فتنه الروحية شعرا ، وجدير بنا أن نبحث عن هذا الشعر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا وقد كان ، فرجعت إلى جرائد الظاهر والمؤيد واللواء سنوات طوالا ولكنى لم أظفر ببيت واحد من الشعر مهور باسم الشيخ عبد العزيز البشرى .

وفجأة طالعت فى الرسالة مقالا للأستاذ منصور جاب الله جاء فيه :

(قال البشرى الشعر فى صباه وكان يرسله فى جريدة الظاهر هجوما فى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وتشيعا لمصطفى كامل ومحمد المويلحى) (٢) .

---

(١) اوراق الورد ص ٤٨ .

(٢) منصور جاب الله ، الرسالة عدد ٦١٢ مارس ١٩٤٥ .

فرجعت مرة أخرى إلى مجلة الظاهر ولاسيما عام ١٩٠٤ حيث حدثت قضية الزوجية ولكننى لم أعثر على بيت واحد من الشيخ عبد العزيز البشرى فى هذا الموضوع فاضطررت إلى الاتصال بالأستاذ منصور جاب الله كاتب المقال المذكور حيث تشرف بالرد الآتى على صفحات الرسالة (١) :

«تلقيت عن طريق صحيفة المصرى الغراء كتابا من الأستاذ جمال الدين الرمادى يقول فيه إنه يعد رسالة جامعية عن المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى للحصول على أجازة (الماجستير) ويستفسر نى عما نشرته قبل سنوات فى (الرسالة) عن شعر الشيخ البشرى الذى كان ينشره فى صحيفة (الظاهر) التى كان يصدرها المرحوم محمد أبو شادى بك .

والذى سمعته من شيخنا البشرى عام ١٩٣٤ أنه كان يقول الشعر وينشره فى بعض الصحف ومنها جريدة الظاهر على أن ما نشره فى تلك الصحيفة لم يكن يعدو — فيما يظهر — هجاء الشيخ على يوسف صاحب المؤيد — رحمه الله — أيام قضية الزوجية المشهورة عام ١٩٠٤ ولو رجع الكاتب الفاضل إلى مجموعة الظاهر فى تلك السنة لوجد عندها الخبر اليقين فإذا غم عليه الأمر فإنى أنصحه بالرجوع إلى الكاتب اللغوى الأستاذ محمد شوقى أمين المحرر فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فهو حجة فى أدب البشرى

(١) الرسالة العدد ٩٩٦ فى اغسطس ١٩٥٢ ص ٨٧٦ .

إذ كان يملى عليه مقالاته فى أخريات أيامه . والذى أعرفه من طبيعة الشيخ البشرى أنه لم يكن يعنى بجمع ماينشره فى الصحف الدائرة ولقد عهد — رحمه الله — إلى كاتب هذه السطور وبعض إخوانه فى جمع المقالات التى احتواها فيما بعد كتابه المختار .

وبعد فأحب أن أشكر للأستاذ جمال الدين الرمادى حسن ظنه بصاحب هذا القلم الضعيف وأرجو أن يوفقه الله لنشر أدب البشرى قبل أن يعفى عليه الزمان ..

منصور جاب الله

فرجعت مرة أخرى إلى مجلة الظاهر عام ١٩٠٤ ولكنى لم أجد مثل ما بحثت بيتا واحدا موقعاً باسم البشرى . وهكذا لم أوفق فى الوصول إلى نتيجة فى هذا الموضوع بعد ما تعبت فى الحصول على عنوان الأستاذ منصور جاب الله وكتبت له رسالتين وصلا إليه أخيرا ففقد أحدهما على الشاطىء فى رمل الاسكندرية .

ورجعت إلى الأستاذ شوقى أمين المحرر فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ولكنه لم يستطع أن يفتينى بالخبر اليقين .

على أنى وجدت فى مجلة الظاهر عام ١٩٠٤ مجموعة من الأشعار مكتوبة بأسماء مستعارة يغلب على الظن أن بعضها ينسب إلى الشيخ البشرى وتدور هذه الأشعار حول قضية الزوجية المعروفة .

وقد عثرت على قصيدة للبشرى فى الرسالة نشرها عام ١٩٣٤

بعنوان (عبرات منظومة) (١) وقد قدمتها مجلة الرسالة بقولها :
(أتى على الأستاذ البشرى سبع وعشرون سنة لم يقل فيها بيتاً من الشعر حتى فجعه الموت فى صديقة الدكتور حلمى المنشاوى وهو فى ريق شبابه ومشرق نبوغه فرثاه بهذه القصيدة الباكية :

خلا الدمع بعدك والعيش مر ... فخطبك جل على المصطبر
وما خير هذه الحياة وقد كنت ملء الفوائد وملء البصر
فإن كان لا بد من لبثه ... فما هى إلا الدمى والصور
واما الهناء وأما النعيم فذلك عنه القدر
وهل كان يضحك زهر الربى ... إذا لم يباكره فيها المطر
وما لذة السمع للسامعين ... وما من حديث ولا من سمر
ويا ويح من أمعنوا فى الفلاة إذا الليل جن وغاب القمر

* * *

بنفسى هذا الفتى الأريحى ... النجيب النجيد الأبى الابر
جميل المحيا نبيل الخلا ... ل كريم الفعال صدوق النظر
شديد الحياء عظيم الوفاء ... يرى الشر شر الهنات الكبر
أمين لغيب الصديق نصيح رقيق المقال إذا ما حضر
له شيمة كعبير الورود ... وروح كمثل نسيم السحر

---

(١) العدد ٣٤ من الرسالة ٢٦ فبراير ١٩٣٤ .

جلا هذه النفس من صاغها وطهـــرها من خبيث الوضر
وما كان يعلو الغبـــار السما ء أو يسكن الترى جوف الدرر

* * *

أحلمي رويدك وما جرى تحدث فدا بك صـــدق الخبر
لقد كنت نعم الفتى المرتجى فديتك والأمل المـــدخر
صليب القناة خصيب الحصاة رحيب الأناة عزيز النفـــر
فتى العزيمـــة ما تثنى ولو ذاب دون المرام الحجر
بعيد المطالب رحب المنى وصول الجهاد دؤوب السهر
نرجي ونرجى لجلى الأمور فمادا دعاك لهـــذا السفر ؟

* * *

لكم صادفيك أبوك المنى دراكا وصارع فيـــك الغير
وضن عليك الدهر أن يعتريك بما يعترى العالمين الدهـــر
ولو قد ترقرق ماء الحياة لدى المشترى ما ونى أو فتر
ولو كان يرضى الفدى مهجة لشد على قلبـــه واعتصر
ولكن تغلب عزم الزمان على عزمه والقضـــاء انتصر
أحافظ ذلك حـــكم الإله وهل لامرىء دونه من مفر ؟
فلم يبق إلا الرضا بالقضـــا أعانك من قد بلا واختـــبر !

وهذه هى القصيدة الوحيدة التى ثبتت نسبتها إلى الشيخ البشرى

ولم أعثر فى مكتبه ولا فى أوراقه الخاصة على شىء يفيد أن البشرى كان يقول شعراً .

أما (فكرة) هذه القصيدة فهى فكرة الحزن وليست إلا تصويراً لمسارب الشعور من أثر اللوعة والألم وهو تصوير كلاسيكى حيث اعتمد شاعرنا أو أديبنا الشاعر فى القرن العشرين فى (صورة) على ذكر الدمى والصور وتصوير الغائب بالمطر الذى يبعث فى الزهر الايراق والاشراق ، وتلك صورة نجدها كثيراً عند البحترى وأبى تمام بل نجدها عند من سبقهما من الشعراء .

فالصورة الأولى صورة الدمى والصور أقل ما يقال فيها أنها منتزعة من العصر الجاهلى والصورة الثانية صورة الزهر والمطر أقل ما يقال فيها أنها منتزعة من العصر العباسى إن لم يكن قبل ذلك كثيراً . والأغرب من هذا أن البشرى تمم الصورة البدوية بالرحيل فى الصحراء وصور الغائب بالقمر الذى يهدى المدلج السائر .

ومضى البشرى بعد ذلك يضفى على المتوفى أوصافا متلاحقة حتى كأنما يمدحه مدحا لا يرثيه رثاء ، وهى أوصاف معنوية لا حسية ، اللهم إلا وصف واحد وهو جميل المحيا ، أما الأوصاف الأخرى مثل نبيل الخلال ، وكريم الفعال ، وشديد الحياء ، وعظيم الوفاء ، وغيرها

فكلها أوصاف معنوية وذلك ما كان يحرص عليه الشعراء العرب في مدح الرجال .

والفقرة الثالثة من القصيدة استئناف لهذه الأوصاف ولكنه استهله بالنداء (أحلى رويدك) فالإستفهام (وماذا جرى) فالأمر (تحدث) في بيت واحد ثم عاد إلى أسلوبه الأول من ذكر الأوصاف المتلاحقة .

أما في الفقرة الأخيرة فقد بين أثر المصاب في أبيه وكان أقرب الأقربين إليه وهو فلذة كبده وخلاصة نفسه وصور منزلة الإبن العظيمة عند والده ورغبته في أن يفتديه بالمهجة . . . والروح . . ولكن لا راد لحكم الله ولا مفر من قضائه . . . ولا مهرب من بلائه . . .

تلك هي جملة من (الصور) التي تراءت في قصيدة البشري وهي ليست صوراً مستحدثة ولا مجددة . أما من ناحية (الأسلوب) التي صيغت فيها هذه الصور فهو أسلوب سهل بديع ليس فيه إغراب ولا تعقيد وليس فيه التواء ولا اعوجاج ، وليست فيه ألفاظ معجوجة ولا عبارات مرذولة ، إنما تتدفق منه السهولة والعذوبة ويجمع عناصر الأسلوب الثلاثة التي تحدث عنها بوفون وهي القوة والجمال والوضوح .

ولقد كنا نلتمس من البشري شعراً تتجلى فيه مظاهر أسلوبه وخصائصه الفنية وتتبدى فيه سخريته اللاذعة وتهكمه المريروتلوح

فيه صوره الكاريكاتورية الخفيفة ولكننا لم نجد للبشرى شيئا عن هذا ومن يدرى ! فربما كتب البشرى فى هذا الباب ولكن ما كتبه فقد أو انهال عليه البشرى تمزيقا وتحريقا كعادته التى تحدث عنها . . .

وربما كان شعر البشرى نوعا من (الإستجابة) الفنية التى يخضع لها الأدباء فى مطلع حياتهم الأدبية لنضج إحساسهم وإرهاف شعورهم ، فقد كتب الزيات الشعر فى مطلع حياته ولكنه لم يلبث أن تركه إلى النثر ، وكتب المنفلوطى الشعر كذلك وألحقه ببعض كتبه ، أما طه حسين فقد كان شاعراً منذ أكثر من أربعين سنة وقد ذكرت طرفا من شعره فى هلال أكتوبر ١٩٥١ ، وما يقال عن طه حسين يقال على المازنى فقد عالج الشعر فى مطلع حياته وكتب بعضا منه فى جريدة الجريدة التى كان يصدرها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ويعاونه تلاميذه فى الكتابة فيها مثل طه حسين وعبد الحميد حمدى الكاتب الموهوب .

ولعباس محمود العقاد دواوين من الشعر غير أن أكثرها ينسب إليه وهو لا يزال فى طور الشباب وقبل أن يطغى المقال الأدبى أو الصحفى أو البحث العلمى على إنتاجه الفكرى . وحاول الرافعى أن يكون شاعرا . . فنظم مجموعة من القصائد وكتب طائفة من الأناشيد غير أن شاعريته لم تكن من النوع الملهم الموهوب فترك الشعر إلى النثر .

وكان فى أغلب نثره شاعراً . . ولكن من غير قافية ولا بحر .

فشاعرية البشرى إذن قد تكون من هذا النوع أو ما يشبه هذا النوع . محاولة لجمع طرفى الكلام . . نثره وشعره . ومنثوره ومنظومه. وقد تكون كما فى بعض الأحوال السابقة الذكر استجابة لدعوات الشباب . . . وبواعث الإلهام . . . لأن الحس قد نضج والشعور قد احتدم لسبب ما نخرج منه وصدر عنه كلام موسيقى رتيب نظيم ينبض . . بالعاطفة ويتابع الخيال ويطلق عليه نقدة الأدب . . . الشعر . . . ! !

obeikandl.com

٥ — البشرى كاتب المقال

سنحاول أن ندرس البشرى فى هذا الفصل ككاتب للمقال وقد خاض البشرى فى المقال الأدبى كما خاض فى المقال الصحفى وكانت له فيه صولات وجولات . كتب البشرى فى الثقافة والرسالة وغيرهما من المجلات الأدبية كما كتب فى الكشكول والسياسة الأسبوعية والمصور وغيرها من المجلات الصحفية . وقد اتبع البشرى فى هذين اللونين من المقال أصولا خاصة وأسلوباً خاصاً ، وعاصر البشرى نشأة الإذاعة فى مصر وشارك فى النهضة الأدبية عن طريق المذياع فأذاع كثيراً من المحاضرات ووجه كثيرا من الانتقادات التى لا يمكن أن تغمط منزلتها الأدبية فى إنتاج البشرى .

وقبل أن ندرس البشرى ككاتب للمقال نحب أن نبين أصول المقال ونعرفه تعريفاً واضحاً يلقى الضوء على موضوعه وأسلوبه عند البشرى .

وليست المقالة فى الواقع أكثر من فكرة من الأفكار يتصيدها الكاتب أو يتلقفها من البيئة المحيطة به ، ومتى انفعل الكاتب بفكرة ما أحس فى نفسه حاجة ملحة إلى الكتابة ، وفى هاتين المرحلتين

وهما مرحلة التصيد أو التلقف ، ومرحلة الانفعال ، يشترك الصحفي والأديب ثم يفترق الرجلان بعد ذلك ، أما الأديب فيترك العنان لخياله وشعوره ، كما يترك العنان لقلمه يكتب ما يشاء ويتبع في ثورته ما يشاء . فيخرج على الناس بقصيدة غراء ، أو خطبة بليغة ، أو مقالة شيقة أو قصة شائقة ، ونحو ذلك من ألوان الأدب . أما الصحفي فيشيع في كتاباته السخرية والتهكم ، ولا يجري في مقاله وفق قاعدة متبعة ، ولا يعبر إلا عن وجدانات غيرية ، وفي هذا يختلف عن الأديب الذي تدور كتاباته في أغلب الأحيان حول وجدانات ذاتية .

فالمقالة الأدبية إذن فكرة قبل كل شيء ، وموضوع فكرة واعية . . . وموضوع معين يحتوي قضية يراد بحثها . قضية تجمع عناصرها وترتب بحيث تؤدي إلى نتيجة معينة وغاية مرسومة من أول الأمر ، وليس الانفعال الوجداني هو غايتها ، ولكنه الاقتناع الفكري .

أما المقالة الصحفية كما يقول جونسون فلا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام أو هي قطعة لا تجري على نسق معين ولم يتم هضمها في نفس كاتبها ، وليس الانشاء المنظم من المقالة الأدبية في شيء.[1]

وعلى هذا فالفرق كبير بين الأديب والصحفي ، ومن الناس من يصلح أن يكون أديبا ولا يصلح أن يكون صحفيا ، والعكس صحيح ، غير أن من الصحفيين من يأبون إلا أن يجمعوا بين شخصية

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود جنة العبيط أو أدب المقالة ص ٦

الصحفى وشخصية الأديب فى آن واحد . ولقد حاول البشرى أن يجمع بين الطرفين ويلم بالناحيتين .

البشرى والمقال الأدبى :

إذا كان أساس المقال الفكرة، والفكرة المشعة الموحية، فقد كان البشرى يستمد أفكاره من صميم الحياة الاجتماعية، ويغوص إلى دقائقها، ويجلو حقائقها، ويصور مثالبها تصويراً ناطقاً معجباً . وكان أسلوبه فى أكثر مقالاته الأدبية من النوع المهشم أو مايطلق عليه الفرنسيون Style Haché وهو الأسلوب الذى يعتمد على الجمل القصيرة المتلاحقة التى يتابع بعضها بعضا فى نغم موسيقى رتيب ووقع بديع، على العكس من الأسلوب المموج أو ما يطلق عليه الفرنسيون Style Periodique وهو الأسلوب الذى يعتمد على طول الجمل ، وبعد الفواصل ، وطول النفس (١) .

ولم يكن البشرى فى مقاله الأدبى ولا فى مقاله الصحفى رهين فكرة واحدة، أو حبيس موضوع واحد، إنما كان يتنقل كالفراشة من زهرة إلى زهرة، وكالطير من روضة إلى روضة، ولم يكن يستعمل أسلوب الذاكرة وهو الأسلوب الذى يستحق أن يحارب من كل كاتب . فلم يكن يستخدم التعابير المحفوظة التى طال استعمالها ، والأفكار المطروقة التى كثر استخدامها حتى هزلت وامحت معالمها كالنقود التى يأكلها النحات من كثرة التداول .

ولم يكن البشرى فى مقاله يفعل شيئاً من هذا غير أن إعجابه

---

(١) الدكتور محمد مندور فى الأدب والنقد ص ٦

بأسلوب الجاحظ كان يطغى عليه فى بعض مقالاته طغيانا ظاهراً ملموساً، فهو يعمد إلى ما يعمد إليه الجاحظ من طرق فنون مختلفة، وضروب متباينة من الكلام، وهو يلجأ إلى الأسلوب الموسيق الرقيق الرشيق، والألفاظ العذبة المنتقاه، وهو يصطنع مثلما كان يصطنع الجاحظ فى استخـــدام الألفاظ الفارسية واليونانية والرومانية، فيستخدم الألفاظ الانجليزية والفرنسية وما إليها. وهو يكتب بلغة العامة فى ثنايا مقاله كما كان يفعل الجاحظ ولا يتحرج فى ذكر الكلمات العامية كالعنب الرزاقى، وبائع الرقاق والزلابيا، وما إليها.

ويمكن أن تعد مقال (حيرة الأدب المصرى) ومقال (رسالة الأدب) من النماذج الطيبة لمقال البشرى الأدبى من حيث الفكرة والموضوع، والخطوات المسلسلة الرتيبـــة التى تؤدى إلى غاية الاقتناع الفكرى.

على أننا ينبغى أن نسجل أن البشرى اهتم إلى جانب المقال (بالبحث الأدبى) فنشر بحوثا عن تطور الأدب العربى، وكفاح اللغة العربية فى سبيل الحياة والنهوض، والأدب بين القديم والجديد، وخيال الشاعر بين الطبع والصنعة.. وغير ذلك كما كتب كثيراً من (الخواطر) والخاطرة تختلف عن المقال ولا ترقى إلى قوته وطوله وعمقه، كما كتب فى (التراجم) وهذا فن أدبى لا يتاح للكثيرين ويحتاج إلى مهارة فى العرض، ودقة فى الشعور، وغوص إلى أعماق الأمور.

والتراجم الشخصية فن حديث من فنون الأدب انفصل عن

علم التاريخ ودخل علم الأدب من باب الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره، والتراجم على هذا الوضع تشتمل العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي، وهما التجربة الشعورية، والعبارة الموجهة عن هذه التجربة، لأن إحساس المؤلف بحياة من يترجم له وبظروفه وحالاته النفسية وتطبيقها على تجاربه في عالم الشعور والحياة، وعلى التجارب الانسانية التي خبرها بنفسه أو في قراءاته، ومحاولة استحضار الملابسات التي أحاطت بحياة البطل وتاهت في خضم الوجود في الذهن لحظة فلحظة .. كل هذا يجعل عنصر التجربة الشعورية ذا وجود في ترجمة الشخصية. أما القيم التعبيرية فهي بطبيعتها ستوجد بوجود التجربة الشعورية على هذا النحو من القوة والوضوح (١).

ولقد ترجم البشري لرشدي باشا والشيخ علي يوسف ومحمد بك المويلحي، ولكننا ينبغي أن نعترف أن تراجم البشري لا يصح أن تسمى تراجم Biography بأدق معاني هذه الكلمة وأصدق مدلولات هـــذا اللفظ، إنما هي (استعراض أدبي) Literary Show لهذه الشخصيات، وقد أضفى شخصيته عليها بشكل واضح ملموس حتى جاءت تراجمه أشبه بمحاولة إلى (التفنن الأدبي والأسلوبي) كما لم تخل هذه التراجم من التقريظ حتى جاءت أشبه بقصائد المدح وكلمات الرثاء في بعض الأحيان.

---

(١) سيد قطب. النقد الادبي ص ١٠١

البشرى والمقال الصحفى :

خاض البشرى غمار المقالة الصحفية وكان يعالج فى مقالاته حينا الأدوار الاجتماعية المتفشية فى مصر ، أو يعالج السياسة وينقد السياسيين ، ويخصص لكل واحد منهم لوحة فنية فى مرآته حينا حتى شغل زعماء السياسة بهذه المقالات ، وكان بعضهم لا تغمض له عين حتى يقرأ ما كتب عنه البشرى فى السياسة فى صبيحة اليوم التالى . وقد امتازت هذه المقالات بالصور الكاريكاتورية البديعة التى رسمها بأسلوبه لهؤلاء الزعماء ، كما امتازت بنقد الشخصيات والأشكال والأحجام كتلك التى كتبها عن زيور باشا فأثار العجب والإعجاب .

أنظر إليه وهو يقول عن زيور باشا (أما شكله الخارجى وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية . فذلك كله يحتاج فى وصفه وضبط مساحاته إلى فن دقيق وهندسة بارعة ، والواقع أن زيور باشا رجل ، إن صح هذا التعبير ، يمتاز عن سائر الناس فى كل شىء ، ولست أعنى بامتيازه فى شكله المهول ، طوله ولا عرضه ، ولا بعد مداه فإن فى الناس من هم أبدن منه ، وأبعد طولا ، وأوفر لحما ، إلا أن لكل منهم ، هيكلا واحدا . أما صاحبنا فإذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض . وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها مايدور حول نفسه ، ومنها مايدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر وفيها المسترخى . . . المترهل . . .) [1]

---

(١) المرآة . عبد العزيز البشرى ص ٧

فهذا كاريكاتور فى الأدب لا نعهده فى غير البشرى من أدباء العصر الحديث، ومن لف لفه ونهج نهجه . ولعل الذى ابتدع هذه الطريقة فى مستهل أمرها الجاحظ، فقد كانت للجاحظ قدرة كبيرة فى هذا المضمار ، كما هو الحال فى الرسالة التى كتبها فى هجاء رجل من الديوان العباسى فى ذلك الوقت اسمه أحمد بن عبد الوهاب وتقع هذه الرسالة فى خمسين صفحة من القطع الكبير وجاء فيها :

(كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته، واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع، وهو فى ذلك يدعى البساطة والرشاقة . .) (١)

وامتاز البشرى كذلك فى مقالته الصحفية بخفة الروح ، ونكاته اللطيفة، وملحه الطيبة، يرسلها فتكون أشبه بالضحكة الحلوة الناعمة، أو الابتسامة الصافية العذبة .

وامتاز البشرى فى هذا النوع من المقالات كذلك بالدعابة التى وصفها الدكتور طه حسين بقوله إنها لاذعة ولكن لا تضر أحدا كقوله فى جراح مصر المعروف الدكتور على باشا إبراهيم رحمه الله (٢).

(وبعد فإن حقا على أهل مصر جميعا ومياسيرهم بنوع خاص أن يسجدوا لله تعالى سجدة الشكر كلما أطلت شمس الصباح عليهم اغتباطا بأن على إبراهيم غير ولوع بجمع المال، فلو كانت لغيره تلك

(١) رسالة التربيع والتدوير للجاحظ (رسائل الجاحظ ص ١٤٢)
(٢) المرآة عبد العزيز البشرى ص ١٦

الأصابع التى (تسرق الكحل من العين) لأثر أن يكون نشالا . إذ والله لسل الآلاف ولأحرز أكثر مما تجدى الجراحة أضعاف الأضعاف ، ولما أبقى فى جيب على كيس ، ولاهى الناس بكريم ولا نفيس ، ولكن قدر فكان وسبحان (من يعطى الخلق للى بلا ودان . . . !)

ففى هذه الفقرة تظهر روح البشرى الخفيفة واضحة جلية للعيان كما تبدو نزعته إلى استعمال العامية فى بعض المواطن ، لا ضعفاً ولا إسفافا ، ولا خروجا عن الذوق السليم ، وإنما لتحلية الكلام وتقريبه إلى الأفهام على النحو الذى يفعله كتاب الصحافة لتقريب الفكرة إلى الأذهان .

على أن البشرى لم يخص بمقاله الصحفى تلك المزايا فحسب ، إنما عالج كثيراً من المشاكل الاجتماعية ، كمشكلة الطفولة المشردة وإصلاح القرية المصرية وغيرها من المشاكل والمسائل التى تصادف رجال السياسة والاصلاح ، ويعالجها الصحفيون بتوجيهاتهم ويحلونها بآرائهم النيرة وأفكارهم السديدة . تأمل ما يقوله فى الطفولة المشردة :

(إن الداء لا يحسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحشر مما تهيئ لنا الملاجىء ويحمل فى أيدينا من جلائل الأموال ، لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بإيوائهم إلى الملاجىء وتعليمهم ما يفتح عقولهم ، وينير بصائرهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وتمرينهم فى ألوان من الحرف تجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة . لست أزعم أن

هذا القدر لا يجدى ولا يفيد، بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة، على أن هذه الفائدة لا تتعدى تلطيف المرض، ولكنها لا تحسم العلة ولا تجتث جرثومة الداء، والرأى الذى أرى أن يبدأ المصلحون العاملون ببحث هذه المعضلة الخطيرة من عنـــد أولها لا من عند آخرها، بالنظر فى رفع المستوى العقلى والصحى فى تلك الهيئات الوضيعة وتقييد الزواج بالقدرة على كفالة الولد أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه الحياة مادامت هذه سبيله إلى الحياة على أن يجيز ذلك أئمة الشرع الحنيف . . .) (١)

فهذا هو رأى البشرى فى الإصلاح ومعالجة معضلة الطفولة المشردة، وهو رأى صريح جرىء، ولا سيما دعوته إلى تحديد النسل وهذه دعوة خطيرة تطاحن من أجلها المفكرون وعلماء الاجتماع فى أوربا وأمريكا .

ويقول فنلون fenelon « إن المقال لا يكون له نظام حق إلا إذا كان من غير المستطاع أن نضع جزءاً منه مكان آخر بدون أن نضعف المجموع أو نبهمه أو نخل به، وكل مؤلف لا يضع هذا النظام لمقاله لا يملك موضوعه حقا، وليس له إلا ذوق غير كامل وفطرة منتقصة ويجب أن يشمل النظر كل شىء ويخترق كل شىء ليعرف المكان الدقيق لكل كلمة » .

ونحن إذا طبقنا هذا الكلام على مقال البشرى رأينا أنه كان

---

(١) قطوف ج ١ ص ١٢١

كثيرا مايحافظ على الترابط بين الأفكار والتسلسل بين المقدمات والنتائج، غير أنه لم يكن يراعى ذلك فى المقال الصحفى، وتلك ميزة لا تنقص من قدره ولا تخفض من شأنه، لأن المقال الصحفى على العكس من المقال الأدبى، مزيج من السخرية والثورة، ولا يسير وفق نظام ولا رابط، كما يقول جونسون.

فاذا كانت السخرية من عناصر المقال الصحفى الناجح فقد أشاع البشرى فى مقالاته الصحفية روح التهكم من الأوضاع الاجتماعية المقلوبة فانتزع إعجابنا وحرك نفوسنا.

ولكننا يجب أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن عبد العزيز البشرى لم يكن ذا طبيعة مزدوجة، ولم يكن يتقمص دائما شخصيتين، شخصية الأديب وشخصية الصحفى. إنما كان يجمع فى أغلب الأحيان بين شخصية الأديب وشخصية الصحفى فى آن واحد. كما أن أكثر الصحف التى كان يكتب فيها البشرى فى ذلك الوقت كالسياسة والأهرام والكشكول كانت تحب أن ترقى ببعض صفحاتها إلى صف الأدب الخالص والأسلوب الأدبى المتفنن، وكان البشرى أديباً صحفياً قبل أن يكون صحفياً أديباً...